

الشيخ العلامة
أبو عمار عبد الكافي التناوتي
(٥٠٠ - ٥٦٩ هـ)

عصره وحياته وفكره

تأليف

سالم بن هلال بن سالم الخروصي



مكتبة
المخطوطات
والأرشيف
بمملكة
السعودية

1151

1

١١٢١

في مكان القديم

أبو عمار عبد الكافي التناوتي

(...)

٦٠٠٢ - ٦٦٣١

عصره وحياته وفكره

تأليف

سالم بن هلال بن سالم الطروصي

مطبعة دار النشر والتوزيع

٧٦٠٠٦٦٦

www.dhamir.com

مكتبة النشر والتوزيع

www.dhamir.com

أبو عمار عبد الكافي التناوتي

الشيخ العلامة

أبو عمار عبد الكافي التناوتي

(٥٠٠-٥٦٩ هـ)

عصره وحياته وفكره

تأليف

سالم بن هلال بن سالم الخروصي

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع

السيب / سلطنة عمان

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع

هاتف : ٩٣٣٠٠٢٧

e. mail . www . dhamri @ hotmail . com

or

www . dhamri61 @ omantel . net . om

ص ب ٢ السيب الرمز البريدي ١٢١ سلطنة عمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين وعلى آله وصحبه
أجمعين .. أما بعد :

فإن التاريخ الإسلامي عبر عصوره المتعاقبة وأجياله المتتابعة أنجب الأعلام
الذين أسهموا في بناء الحضارة الفكرية ، وشيدوا جسور التواصل الثقافي بين الأمم
عبر عصورها فكان نتاجهم مكتبة إسلامية عامرة بمختلف المصنفات في العلوم
والمعارف ، وإن من بين هذه الشخصيات أبا عمار عبد الكافي الإباضي الذي عاش
في القرن السادس الهجري في الفترة ما بين [٥٠٠-٥٧٠] هـ والذي نتناول
عصره وحياته وفكره خلال هذا البحث المتواضع .

أيها القارئ الكريم إن اختيار هذه الشخصية يرجع لعدة أسباب أهمها :

١- أن الدراسات التي قامت بتحقيق مؤلفاته لم تعط تصورا وافيا عن
عصره وحياته، وهذا شأن سائر المحققين إذ الاهتمام بجانب
التحقيق والدراسة أكبر من الاهتمام بجانب الترجمة لشخصية
المؤلف.

٢- أن هذه الشخصية أسهمت في التحول الفكري في الفترة الفاصلة
بين عهديين :

- عهد التأسيس المذهبي والاحتلال السياسي.
- عهد العطاء والإنتاج الفكري والاستقرار السياسي.

فكان لابد لنا من وقفه مع هذه الشخصية الفذة لتتعرف على جوانبها المختلفة ، وإن ندرة المصادر التي تعين على معرفة تواريخ بعينها أو أحداث تتعلق بجوانب الشخصية هي شكوى الكثير من الباحثين ولكن متعة البحث تكمن - في نظري - في التساؤلات التي تثار والتي تفتح الباب ليتواصل البحث ويمتد العطاء.

فإليك أيها القارئ أهدي هذا الجهد الذي تتولى إخراجه إلى النور هذه الوزارة الفتية التي دأبت على تنشيط الحركة الفكرية والثقافية منذ تأسيسها فنهجت نهجاً فريداً ، وسلكت مسلكاً رشيداً ليكون ذلك في ميزان حسنات كافة المسؤولين الذين أسهموا في إخراج هذا الجهد إلى ميدان البحث والدراسة.

والله الموفق ،،،

الباحث

مدخل

انتشار المذهب الإباضي في شمال أفريقيا

قبل الحديث عن عصر وشخصية العلامة أبي عمار عبد الكافي لابد لنا من أن نتعرف على كيفية دخول المذهب الإباضي إلى " وارجلان " ، أو -بالمعنى الأصح - إلى شمال أفريقيا ؛ فالحديث يشمل بلدان المغرب العربي على السواء لاشتراكها جميعاً (تونس - الجزائر - ليبيا) في اللغة ، والجنس ، والموقع الجغرافي الذي كان له الأثر السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي إلى جانب تأثيره الديني ، على أهل تلك البقعة المهمة من العالم الإسلامي ؛ لذلك فإن حديثنا ليس مقصوراً على بلد بعينه من بلدان المغرب ، وإنما هو حديث يتحول بنا من قطر إلى آخر حسب مجريات الأمور والأحداث التي نحن بصدد بيانها ، وهي كيفية انتشار المذهب الإباضي بهذا الجزء المهم من العالم الإسلامي.

وقبل الشروع في المقصود ينبغي أن نلقي نظرة - ولو عجلى - على ما كان عليه شمال أفريقيا من الناحية الدينية قبيل الفتح الإسلامي ؛ حتى نتمكن من معرفة تطور الفكر الديني لدى هذا الجزء من القارة الأفريقية.

شمال أفريقيا قبيل الفتح الإسلامي :

لقد كانت بلاد البربر قبل الفتح الإسلامي تعج بالأفكار الفاسدة والوثنيات ، شأنها شأن الكثير من المجتمعات التي عاشت تبحث عن رابط روحي يربطها بواقع الحياة ، ويسد فراغها الديني والروحي مما جعلها تتنوع في اعتقاداتها تدريجياً ابتداءً بالوثنية ، ومروراً باليهودية ، ثم المسيحية على فترات ومراحل متفاوتة.

وعن بداية دخول الوثنية إلى بلاد البربر يقول صاحب كتاب ((فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية))^(١) :

" تسربت الديانة الوثنية إلى الشمال الأفريقي على يد الفينيقيين أيام أن كانت هذه المنطقة تابعة لقرطاجنة قرابة ثمانية قرون حتى عام [١٤٦ ق.م] " ^(٢).

ولقد تنوعت هذه الديانات الوثنية حسب مظاهر الحياة المختلفة وطبيعة جغرافية بلاد البربر ؛ فتأثر دينهم المحوسي بطريقة حياتهم ، ومناخ بلادهم ؛ ((فامتلاً دين القوم بكثير من الطقوس ، والشعوذة ، والتعاويذ التي كانوا يرددونها لاستجلاب الأمطار هذا ، بالإضافة إلى أن اتساع الصحراء المحيطة بهم وخوفهم من أن يوغلوا فيها جعلهم يعتقدون وجود أرواح شريرة تشيع في المناطق المجاورة لهم ؛ ومن ثم اختلط دينهم الوثني بالسحر)) ^(٣) . أو لربما تكون هذه الطقوس الوثنية قد وصلتهم من أفريقيا السوداء ؛ للتقارب الكبير الذي نراه اليوم بين تلك الطقوس وهذه التي مازالت باقية عند بعض الشعوب الأفريقية ، التي لم يتمكن الإسلام من قلوب أهلها بعد ولا تزال على وثنياتها.

((وإبان الاحتلال الروماني حاول الرومان فرض ديانتهم على البربر بعبادة آلهتهم مثل: أوزوريس ، وإيزيس ، ولكن البربر آثروا أن يستظلوا بظلال آلهتهم مثل: الإله تانيت ، والقرطاجية بعل حمون)) ^(٤) .

ولعل السبب في تمسك البربر بآلهتهم مرده إلى أنهم كانوا أهل أنفة لا يقبلون

^(١) يحيى هويدي : تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ١٧ ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

^(٢) المصدر السابق.

^(٣) المصدر السابق ص ١٥.

^(٤) المغرب الكبير ت. رشيد الناضوري: ٣٤٢/١-٣٤٣ (بتصرف) ، ط. دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١.

الذل ، وكان عسيراً على الرومان أن يجبروهم ويكرهوهم على عبادة مالا يرغبون وأن يعتقدوا ما يعتقد غيرهم.

أما عن تاريخ وصول اليهودية إلى المنطقة ، فيذكر لنا صاحب ((تاريخ المغرب في العصر الإسلامي))^(١) :

((أنها جاءت مع موجات الهجرة المتواصلة منذ أقدم العصور ، بعضها يهودية ، وبعضها سامية ، وبعضها هند أوروبية ، كاللاتين والوندال والإغريق)).

وذلك أنه لما احتل " بختنصر البابلي " مدينة بيت المقدس ، وشرّد اليهود ، التجأ العديد منهم إلى الحبشة في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، وفيها أنشأوا المراكز التجارية التي لعبت دوراً كبيراً في نشر الديانة اليهودية بين الأحباش وفي شرق أفريقيا عموماً ^(٢) .

وبعد بعثة عيسى عليه السلام عمل الحواريون على نشر هذا الدين الذي جاء به عيسى في مختلف بلاد العالم ، وكان وصول المسيحية إلى شمال أفريقيا في القرن الثاني الميلادي ، وانتشرت المسيحية بين البربر على الرغم من احتفاظهم ببعض معتقداتهم ، وقد كانوا - بالرغم من ذلك - يشنون الغارات على المدن الساحلية لينهبوا كنائسها للحصول على الأواني الموجودة بها واستخدامها في طقوسهم الدينية ^(٣) .

وبحكم سيطرة الرومان على بلاد البربر فقد حاربوا في البداية الديانة المسيحية

^(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٨ ، ط. مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر الإسكندرية (بتصرف).

^(٢) انتشار الإسلام في أفريقيا ومناخضة الغرب له تأليف. محمد عبدالله النقيير ، ص ٤٦-٤٧ ، ط. دار المريخ للنشر ، الرياض ١٩٨٢.

^(٣) تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية ١٥/١-١٦.

لأنهم كانوا وثنيين ، وتعرض المسيحيون من البربر والرومان على السواء للاضطهاد الكبير من قبل أباطرة الرومان في القرن الثاني الميلادي ، خاصة في عهد الإمبراطور ((صوكليسيان)) ، الذي تولى الحكم في سنة (٢٧٤م) ، حتى إن فترة حكم هذا الإمبراطور عرفت بـ (عصر الشهداء) نظراً لمقتل أعداد كبيرة منهم؛ ولما ارتقى الإمبراطور قسطنطين عرش روما في سنة ٣١٢م أصبحت المسيحية الديانة الرسمية ^(١) ؛ ولما تفاقم الخلاف بين الأسقف دوناتوس وأسقف قرطاجنة ؛ التجأ دوناتوس إلى البربر ، وأعلن الثورة ضد الرومان ؛ وحاول هؤلاء إرغام الأهالي على التحلي عن مذهبهم والأخذ بمذهب كنيسة القسطنطينية ، حتى إنهم كانوا يحاصرون المدن ، ويعدمون كل من يرفض التحلي عن مذهبه ؛ مما دعا العديد منهم إلى الفرار إلى إيطاليا وأسبانيا وألمانيا ، وشيئا فشيئا تقلص عدد من يدينون بالمسيحية في هذه البلاد ^(٢) .



الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا :

أشرقت شمس جديدة على شمال أفريقيا على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ؓ وشاء الله أن يصل نور الإسلام إلى هذه المنطقة التي عانت ظلم الرومان الوثنيين على يد عمرو بن العاص الذي تجمع المصادر التاريخية أنه بعد أن فتح الله على يديه أرض مصر ، ووصل إلى الإسكندرية سنة ٢١ للهجرة الشريفة على صاحبها أزكى السلام — توجه بعد ذلك إلى برقة (انطابلس) ثم طرابلس ؛

^(١) تاريخ المغرب الكبير ت. محمد علي دبور ٤٠٦/١ ط. دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣.

^(٢) زاهر رياض : شمال أفريقيا في العصور الوسطى ، ص ٣٤ ط. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١م.

ففتحهما عام ٢٣هـ وذلك قبل أن يتم له فتح مصر ، وكتب بذلك إلى الخليفة عمر ؓ : ((إن الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقيا إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ، ويفتحها الله على يديه فعل)) .

فكتب إليه عمر ؓ : ((لا إنها ليست أفريقيا ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت)) ^(١) .

وفي عهد الخليفة عثمان ؓ وجه عبدالله بن السرح قواده إلى أطراف أفريقيا سنة ٢٥هـ ، ثم خرج هو تحت راية الإسلام سنة ٢٧هـ لأفريقيا فاتحاً منتصراً وبعده واصل البطل المسلم عقبة بن نافع الفهري سلسلة الفتوحات الإسلامية سنة ٤٦هـ ، ووصل إلى المغرب الأوسط ، وأسس القيروان سنة ٥٠هـ ، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان وصلت رايات الإسلام إلى المغرب الأقصى إلى حدود طنجة ، ومنها إلى بلاد السوس ، وبلاد السودان.

وفي عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان تمكن الفاتح العظيم موسى بن نصير وقائده الكبير طارق بن زياد من الوصول إلى هدفهما الغالي وأملهما المنشود سنة ٨٥هـ وفتح الله باقي الأندلس على يد طارق وارتفعت رايات الإسلام تحفق في سماء الدنيا ونور " لا إله إلا الله " يعلو هاماتها.

ولما قامت دولة العباسيين على أنقاض الأمويين قامت في شمال أفريقيا في تلك الفترة دويلات بعضها يوالي بني العباس وبعضها الآخر استقل بالحكم.

^(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم نقلا عن تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية ، د. يحيى هويدي ص ١٨.

ظهور المذهب الإباضي وانتشاره في شمال أفريقيا :

تجمع المصادر الموثوق بها ^(١) أن الفضل في تأسيس المذهب الإباضي يرجع إلى الإمام جابر بن زيد رحمته الله ^(٢) فهو المؤسس الحقيقي للمذهب ، وإن كان المذهب فيما بعد نسب لعبدالله بن إباح المري ^(٣) ؛ لما بذله من جهد عظيم في دعم مبادئ المذهب ، والعمل على نشرها والدفاع عنها والقيام بدور الوساطة بين الإمام جابر بن زيد وأمراء بني أمية في مرحلة الكتمان، كما أن له مراسلات مع عبد الملك بن مروان دونت في كتب سير الإباضية، وبعد وفاة الإمام جابر بن زيد التابعي آل أمر المذهب إلى الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ^(٤) الذي استطاع بعبقريته الفذة أن

^(١) انظر : نشأة الحركة الإباضية للدكتور عوض خليفات ص ١٢٥ ط. دار الشعب - عمان سنة ١٩٧٨ ، الإباضية في موكب التاريخ ص ١٤٣ مج ١ ت. علي يحيى معمر ط. مكتبة الضامري - سلطنة عُمان سنة ١٩٩٣ م.

^(٢) هو جابر بن زيد التابعي من أزد عمان ، ولد عام ١٨٨هـ / ٦٢٨ م ، ويرى علي يحيى معمر أنه ولد في عام ٢١هـ بقرية فرق من أعمال نزوى ، نشأ بعمان ثم ارتحل إلى البصرة طلباً للعلم فقام بها إلى أن مات وكانت وفاته سنة ٩٣ هـ ، وقيل ٩٦ هـ ، انظر: مختصر تاريخ الإباضية لأبي الربيع سليمان الباروني ص ٢٧ ط. مكتبة الضامري - الإباضية في موكب التاريخ ت. علي يحيى معمر ١٤٣/١ ط. مكتبة الضامري سلطنة عُمان ١٩٩٣ م.

^(٣) هو عبدالله بن إباح المري التميمي ، من أهل نجد ، لم يذكر من ترجم له تاريخ ميلاده ولا وفاته ، والمؤرخون متفقون على أنه كان معاصراً للإمام جابر بن زيد ، وكان يصدر عن رأيه ، وعاش إلى زمن عبد الملك بن مروان ، وأجابه برسالة مطولة بين له فيها حقيقة مبادئ المذهب وسير أهل الاستقامة.

انظر: اللعة المرضية في تاريخ الإباضية : بالحاج قشار ، ط. مكتبة الضامري للنشر والتوزيع سلطنة عُمان : ١٩٩٠ ، العقود الفضية في أصول الإباضية : الشيخ سالم بن حمد الحارثي ص ١٢١.

^(٤) هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، مولى بني تميم ، اشتهر بقلب القفاف ؛ لأنه كان يشتغل بصنع القفف ، تولى أمر المذهب عن جدارة بعد الإمام جابر بن زيد رحمته الله وعلى يديه تتلمذ حملة العلم إلى المشرق والمغرب ، وإليه ضربت أكباد الإبل ، توفي في ولاية أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي ، انظر : الإباضية في موكب التاريخ ١٥٣/١ ، سير الشماخي : لأحمد بن سعيد الشماخي ٧٨/١ بتحقيق الشيخ أحمد بن سعود السبائي ، ط. وزارة التراث القومي بسلطنة عُمان ١٩٨٧.

ينشر المذهب في المشرق والمغرب من خلال طلاب العلم وحملته، وفي زمانه توجه سلمة بن سعد ^(١) إلى شمال أفريقيا للدعوة إلى مذهب الإباضية.

وتجمع المصادر أن سلمة قدم إلى شمال أفريقيا في أوائل القرن الثاني الهجري إلا أن تاريخ وصوله إلى هذه المنطقة لا يزال مجهولاً ، ويحدد الدكتور عوض خليفات الفترة التي وصل فيها سلمة بن سعد ما بين عامي ٩٥هـ / ٧١٣م - ١١٠هـ / ٧٢٨م ^(٢) ، كما أن المصادر تجمع على أن سلمة بن سعد قدم مع عكرمة مولى ابن عباس على بعير واحد ^(٣) ؛ فسلمة يدعو إلى المذهب الإباضي ، وعكرمة

^(١) يذكر بعض الكتاب من المعاصرين أن اسمه سلامة بن سعيد ، والصحيح أنه سلمة بن سعد ، لم أشر له على ترجمة ولم أدر تاريخ ولادته أو وفاته.

^(٢) نشأة الحركة الإباضية : د. عوض خليفات ، ص ١٣٤ ، ط. دار الشعب - عمان ١٩٧٨ م.

^(٣) يذكر الشيخ علي يحيى معمر أنه قدم بمفرده ؛ فيقول : ((انطلق من جزيرة العرب إلى أفريقيا وحيداً منفرداً - أي سلمة بن سعد - (انظر: الإباضية في موكب التاريخ ٢٥/١) ، ولم يشر إلى عكرمة ، ولعله قصد : منفرداً في فكره لا في صحبته فهو يدعو إلى خلاف ما يدعو إليه عكرمة وليس على ما يفهمه بعضهم من كونه منفرداً : أي لم يصحبه أحد في رحلته ، وإلا فالمصادر كلها تجمع على مقدمه مع عكرمة ، ويشهد على ذلك أن الشيخ علي يحيى معمر صاغ بحثه (الإباضية في موكب التاريخ) صياغة أدبية أكثر منها علمية ، وكان يلجأ إلى ذكر الأشخاص مرات عدة حسب مقتضى الحال عند حديثه عن الإباضية في ليبيا والجزائر وتونس ، فهو يقول : ((وسوف تلاحظ أيها القارئ الكريم وأنت تنتقل بين فصول الكتاب بعض الإعادة والتكرار ، وقد يكون ذلك مما يتقل على القارئ المستعجل والباحث المتقصي الذي تهمة الأحداث المجردة وأنا أعتذر إلى هؤلاء ولكني مصمم على طريقتي في العرض .. ذلك أنني حين فكرت في إصدار هذا الكتاب وبدأت العمل فيه لم أتناوله بقلم المؤرخ الذي يهتم بالأحداث البارزة وتسجيلها على المنهج العلمي لكتابة التاريخ ، ولكني تناولته بقلم من يريد أن يعرض صورة من حياة مجتمع عاش طفلة قرون يرسمه من عدة زوايا لتكتمل الصورة العامة لذلك المجتمع بجميع مناظرها)) الإباضية في موكب التاريخ ١٠/٢ .

يدعو إلى الصفرى^(١) ، واجتماعهما معا في آن واحد ، وعلى بعير واحد هو دليل على أن الخوارج كان هدفهم - بادئ الأمر - الدعوة للمبادئ العامة السياسية مع الإباضية^(٢) .

(١) المذهب الصفرى أحد مذاهب الخوارج أسسه عبدالله بن الصفار ومن أهم مبادئه تكفير أهل التوحيد واستحلال أموالهم ودمائهم (الدليل والبرهان لأبي يعقوب الوارجلاني ٢٨/١ ، ط. وزارة التراث - سلطنة عُمان تحقيق الشيخ/ سالم بن حمد الحارثي سنة ١٩٩٧.

(٢) حتى تكتمل صورة الموضوع لابد من توضيح الفرق بين الإباضية والخوارج : فالخوارج : لفظ : أطلقه المؤرخون من الشيعة والمالين للدولة الأموية على أولئك الذين اعتزلوا الإمام علي - كرم الله وجهه - وهم : عبدالله بن وهب الراسبي الصحابي الجليل الذي بويع بالإمامة بعد موقعة صفين ، والتي رضخ فيها الإمام علي لوجهة نظر معاوية ، وقبل التحكيم ؛ فحل الإمام الراسبي بيعته لعلي ، وتمت مبايعته ، واعتزل هو وأصحابه حدث صفين بعد التحكيم ، إلا أن الإمام علي بعث جنده لقتاله في معركة النهروان المشهورة ، واستشهدوا فيها. ولفظ الخوارج أطلقه علماء الكلام أيضا على أولئك الذين أنكروا الثابت القطعي من أحكام الإسلام أو العمل بما يخالف المقطوع به من نصوص أحكام الإسلام ديناً استناداً لحديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده : "يخرج منكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية تنظر في النصل فلا ترى شيئاً وتنتظر في القدح فلا ترى شيئاً ، ثم تنتظر في الريش فلا ترى شيئاً ، وتتمارى في الفوق". (مسند الإمام الربيع ٥٩/١ ، باب علماء السوء . ط. المطابع الذهبية عمان ١٩٩٣م) ، وأصل إطلاق لفظ الخوارج سياسي تحول إلى لفظ ديني ذلك أن الجماعة التي اعتزلت الإمام علي في بادئ أمرها اتفقت نحو هدف واحد ، وهو أن الإمامة ليست حكراً على القرشية كما يرى البعض ، بل هي شورى بين المسلمين ، ولذلك تمت مبايعة الراسبي ، ولكن نافع بن الأزرق زعيم الأزارقة تأول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ، [سورة الأنعام : الآية ١٢١] ، فأنبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصي ما أتوا ولو أصغرها ؛ فاستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم ؛ وسبى ذراريهم ، (الدليل والبرهان لأبي يعقوب الوارجلاني ٢٨/١ ، ط. وزارة التراث سلطنة عمان بتحقيق سالم بن حمد الحارثي ١٩٩٧ م) ؛ فانشقوا عن المنهج الذي اتفقوا عليه ، وتبع نافع بن الأزرق النجدية بزعمه نجدة بن

ولقد سلك سلمة بن سعد في مسيره لنشر المذهب طريقاً وسطاً بين الصحراء والشريط الساحلي ، ويعلل الشيخ علي يحيى معمر السبب الذي حدا به إلى اختيار هذا المسلك بقوله : "وأعتقد أنه - أي سلمة بن سعد - تجنب الطريق الساحلي في رحلته الطويلة لنشر دعوته القويمة حتى لا يصطدم بأعوان الدولة الأموية التي كانت تسيطر على تلك الجهات ؛ فيتعرض لمصاعب قد تعوقه عن القيام بمهمته ، كما أنه تجنب الطريق الصحراوية لما يتعرض له سالكها من مشاق قطع الصحارى الواسعة واجتياز أخطارها"^(١).

ويذهب الدكتور " عوض خليفات " إلى أن الطريق الذي سلكه كل من سلمة وعكرمة والمناطق التي زارها الداعيتان - الإباضي والصفرى - كان باتفاق مسبق بينهما ، يقول الدكتور عوض : "نزل عكرمة في مدينة القيروان ، وأخذ

عامر ، والصفرية بزعمه عبدالله بن الصفار ، وبذلك نجد أن الصفرية أعملوا السيف في رقاب أهل المغرب من أجل الثورة على الموالين للأمويين كما سيأتي إن شاء الله تعالى لاحقاً . بسبب ذلك اختلفت الإباضية عن الخوارج ، وخرجت من زمريتهم ، وكان لها معهم مواقف كثيرة ، فالإمام الربيع بن حبيب صاحب المسند كان يقول في الخوارج : "دعهم حتى يتجاوزوا القول إلى الفعل ، فإن بقوا على قولهم فخطأهم محمول عليهم ، وإن تجاوزوا إلى الفعل حكمنا فيهم بحكم الله". (الفرق بين الإباضية والخوارج لأبي إسحاق إبراهيم اطفيش ، ص ٧ ط. مكتبة الضامري ، سلطنة عمان) ، كما دارت بينهم وبين الإباضية معارك ضارية في المشرق والمغرب . إلا أن العلماء في القديم والحديث والكتاب والدارسين بعضهم مازالوا لا يفرقون بين الإباضية والخوارج مهما وضحت الصورة ، ولذلك يقول الدكتور أحمد إلياس في كتابه (الإباضية في المغرب العربي) ص ١٩ : "واللقاء الواضح بين الإباضية وفرق الخوارج تمثل في عدم التزامهم بشرط القرشية في الخلافة ؛ وهذا ما أدى بجمهرة المؤلفين إلى النظر إليهم بمنظار واحد". ولمزيد من التفصيل في هذا الموضوع انظر : المراجع التي أشرنا إليها آنفاً.

(١) الإباضية في موكب التاريخ ٢٢/٢.

يتصل بزعماء البربر من مختلف القبائل ، وكان يدعو لمذهبه سراً ، ويبدو أنه ركز معظم جهوده على قبائل البربر القاطنة في المغرب الأقصى بينما ركز سلمة جهوده على قبائل المغرب الأدنى ، ولعل ذلك كان باتفاق مسبق بينهما^(١) .

والذي أراه أن سلمة وعكرمة لم يقتسما أدوار عملهما ولا مسلك دعوتهما ؛ بل إن كل واحد منهما خط لنفسه مسلكاً بمنأى عن صاحبه ، يفرقان أحياناً ويجمعان أحياناً أخرى ، وخير دليل على ذلك ما ذكرته السير الإباضية أن سلمة التقى بعبد الرحمن بن رستم — أحد حملة العلم إلى المغرب — في القيروان .

وينقل الدرجيني في "الطبقات" رواية عن الإمام أفلح^(٢) تؤكد هذا اللقاء ، حيث يقول في أولها : "أول من جاء يطلب مذهب الإباضية ونحن بقرى إفريقية سلمة بن سعد"^(٣) .

ولقد استجاب معظم بربر المغرب الأدنى والأوسط لتعاليم الإباضية وخاصة ليبيا والجزائر ، وبعض المغرب الأقصى في تونس ، فانتشر بين قبائل هواره ، وزناته ، وسدراته ، ولواته^(٤) . وأغلب الظن عندي أن سبب انتشار المذهب الإباضي بين البربر يرجع إلى أسباب عدة أهمها :

١- شخصية سلمة بن سعد : فيما اتصف به سلمة من صفات أهله لتحمل

(١) نشأة الحركة الإباضية : دكتور عوض خليفات ص ١٣٤ .

(٢) هو أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، الإمام الثالث في الدولة الرستمية التي حكمت (تاهرت) من ١٦٠-٢٩٦هـ .

(٣) طبقات المشايخ بالمغرب : لأبي العباس الدرجيني ١١/١ .

(٤) نشأة الحركة الإباضية للدكتور عوض خليفات ص ١٣٦ .

هذه الدعوة وكانت سبباً مباشراً ومهما لقبول دعوته وما تحلى به من صبر وعزيمة وما تخلق به من تقوى ومعرفة بكتاب الله — تعالى — وأسراره "ووضوح في المنطق ، وسلامة في التعبير ، وقوة في الحجج"^(١) . إلا أنني لم أجد أحداً من المؤرخين أو الكتّاب الذين تحدثوا عن أسباب انتشار المذهب في الشمال الأفريقي يجعل هذه الشخصية من ضمن الأسباب ؛ ولهذا آثرت أن تكون شخصية سلمة ضمن الأسباب ليس ذلك مدحاً لشخصه بل الحق ونحن نعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

٢- اضطهاد الدولة الأموية للبربر : فلقد تعاقب على شمال أفريقيا ، منذ الفتح الإسلامي وحتى عصر الدويلات ، عمال وولاة لم يعرف البربر أقسى ولا أعتى من عمال بني أمية .

ويقوم دليلاً على صحة ما ذهبنا إليه من قسوة عمال بني أمية على البربر ما فعله يزيد بن أبي مسلم ، الذي كان كاتباً للحجاج بن يوسف الثقفي ، والذي تولى أمر أفريقيا والمغرب في بداية عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١هـ- ١٠٥هـ) فقد فرض الجزية على من أسلم من البربر ، وأمر حراسه من البربر أن ينقشوا أسماءهم على أيديهم اليمنى ، وكلمة "حرس" على اليسرى : ثم جعل البربر أحماساً ، وأحصى أموالهم وأولادهم ؛ فأنف البربر من ذلك كل الأنفة وغضبوا من هذه السياسة كل الغضب ، وانتهى الأمر بتأمرهم عليه ، فاغتالوه في مصلاه^(٢) .

(١) الإباضية في موكب التاريخ ٢٦/١ .

(٢) الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة : دكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٣٦ ، ط . مكتبة الضامري سلطنة عمان .

هكذا توالى السياسة التعسفية لولاة بني أمية مما كان سببا لقيام أول ثورة صفرية على يد ميسرة المطغري^(١) سنة (١٢٣هـ).

٣- ومن أسباب انتشار المذهب الإباضي بين البربر كذلك المبادئ التي نادى بها سلمة بن سعد (كالمساواة ، والشورى) والتي تعتبر أهم دعائم الإسلام ؛ مما كان حافزاً قوياً لقبول الدعوة الإباضية في المغرب ، وخاصة أن طبيعة البربر اعتادت على ممارستهم لحكم "يرتكز على مبدأ التسيير الجماعي ، وعدم خضوعهم الخضوع الكلي للحكم البيزنطي قبيل الفتح الإسلامي الأمر الذي جعلهم يَتَوَقَّونَ إلى تطبيق مبدأ الشورى ، وهو الذي وجدوه لدى المذهب الإباضي"^(٢).

هذه - في تقديري - هي أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار دعوة سلمة بن سعد انتشاراً واسعاً كما أنها الأساس الذي قامت عليه الدعوة الإباضية ، مع مجمل الآراء التي حملتها دفتي هذا المذهب ، والتي كفلت بقاءه ، واستمراره إلى اليوم في المغرب العربي.

ولقد استطاع سلمة فترة بقاءه في المغرب أن يُكوِّنَ بعثة علمية منظمة ؛ فاختار خمسة رجال توسم فيهم معالم الذكاء المتقد ، والنبوغ الفذ ، مع الصلاح والتقوى ، والرغبة في تحمل مسئولية نشر هذا الدين في بلاد المغرب من أقصاها إلى أدناها ؛ فدفعهم إلى شيخه بالمشرق (أبو عبيد مسلم بن أبي كريمة) ، ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من عمر الدعوة الإباضية.

(١) هو أول من قاد ثورة ضد بني أمية في المغرب ، كان يعمل سقاة بأحواز طنجة ، وكانت ثورته سنة (١٢٢هـ) ، وانتصر عليهم ، ولكن أصحابه قتلوه بعد ما أنكروا سيورته.

(٢) معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان لعمر بن سليمان بن عصبه ص ٧٦ ، رسالة ماجستير ، المعهد العالي الوطني لأصول الدين بالجزائر (غير منشورة).

حملة العلم إلى المغرب^(١) :

قد يتبادر إلى ذهن كثير من الدارسين أن بداية التواصل العلمي والديني بين أهل المغرب والمشرق من الإباضية كان عن طريق حملة العلم الخمسة^(٢) ، إلا أن بعض المصادر التاريخية عن الإباضية تشير إلى شخصيات سبقت هذه البعثة قامت برحلات فردية إلى المشرق ، وكان لها دور في نشر المذهب في المغرب الأدنى مثل : أبو عبد الله الجنائوني^(٣) ، إلا أنها كانت رحلات غير منظمة وليست مثل بعثة حملة

(١) حول مزيد من تفصيل عن حملة العلم إلى المغرب ودورهم الديني والسياسي يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

- كتاب السير وأخبار الأئمة لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر - تحقيق عبد الرحمن أيوب ، ص ٥٧ ، ط. الدار التونسية للنشر ١٩٨٥م.

- مطبقات المشايخ بالمغرب : لأبي العباس الدرجيني ١٩/١ ، تحقيق إبراهيم طلاي.

- الإباضية في موكب التاريخ لعلي يحيى معمر الحلقة الثانية ص ٤٩ ، الحلقة الثالثة ص ٣٧ ، الحلقة الرابعة ص ١٢٩ ، ط. مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ١٩٩٣م.

- رسالة : سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين : لعبدالله بن يحيى الباروني ص ٧ ، ط. فائزي ، تونس ١٩٨٣م.

- العقود الفضية في الأصول الإباضية للشيخ سالم بن حمد الحارثي ، ص ١٨٣.

- الإباضية في المغرب العربي : للدكتور أحمد الياس حسين ، ص ٢٤ ، ط. مكتبة الضامري ، عمان ١٩٩٢م.

- نشأة الحركة الإباضية للدكتور عوض خليفات ، ص ١٣٧ ، ط. دار الشعب عمان الأردن ١٩٧٨م.

- تاريخ الفلسفة الإسلامية في القارة الإفريقية للدكتور يحيى هويدي ٣٦/١ ، ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

- الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية لمسلم بن عبدالله الباروني ، الجزء الأول ، ط. دار بسلامة للطباعة والنشر والتوزيع تونس.

(١) حملة العلم هم : أبو درار إسماعيل بن درار الغدامسي ، من غدامس جنوب طرابلس - عبد الرحمن بن رستم الفارسي مئبناً القيرواني منشأ - عاصم السدراتي من سدراته بوارجلان جنوبي الجزائر - أبو نورد القبلي من نغزاوة بتونس - أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري من اليمن.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالحميد بن مغيطر الجنائوني التونسي من جبل نفوسة بليبيا ، اتجه إلى المشرق لتلقي العلوم على يد مشايخ الإباضية ، ثم رجع وسلمة على قيد الحياة ، وساهم بعد وفاة سلمة

العلم ، وهذه إشارة قد يغفل الباحثون في التاريخ الإباضي عنها كما أغفلها بعض كتاب سير الإباضية في القلم والحديث رأينا أن نشير إليها وننوه بها ونحن في معرض حديثنا عن هذه البعثة التي انتقاهها سلمة ، وبعث بها إلى أبي عبيدة عليه السلام .

سافرت البعثة سنة ١٣٥هـ إلى البصرة حاضرة العلم آنذاك ، وبها لازم الطلبة شيخهم أبا عبيدة ولم يغفلوا عنه يوماً ، ينهلون من ينبوعه الصافي بحس مرهف وعقل حصيف ، فمكثوا مدة خمس سنين يتلقون مبادئ الدين في سرّ دَابِ سرّي هياه الشيخ خصيصاً لذلك بعيداً عن عيون بني أمية وجواسيسهم ، ولما اطمأن الشيخ إلى تعمقهم في معرفة أصول المذهب وتعاليمه ، وتاقت أنفسهم للإسهام في نشر تعاليم المذهب سمح لهم بالعودة.

وتورد السير الإباضية أنهم لما عزموا على الرجوع لبلادهم "كلموا أبا عبيدة واستشاروه في شأنهم ، فقالوا : يا شيخنا إن كانت لنا في المغرب قوة ووجدنا من أنفسنا طاقة أفنؤلكي على أنفسنا رجلاً منا أو ما ترى ؟ فقال لهم أبو عبيدة توجهوا إلى بلادكم فإن يكن في أهل دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال فولوا على أنفسكم رجلاً منكم ، فإن أبي فاقتلوه" ، فأشار إلى أبي الخطاب^(١) ، كما تورد السير الإباضية أن أبا درار الغدامسي سأل شيخه ورجل الشيخ اليماني في الركب واليسرى على الأرض عن ثلاثمائة مسألة ؛ فأجابه عنها ، وقال له : أتريد أن تكون قاضياً يا أبا درار ؟ قال : أرأيت إن ابتليت بذلك^(٢) ؟

في نشر المذهب وكان مقماً عند الإباضية عاش حتى إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (الإباضية في موكب التاريخ ٢٧/١ ، نشأة الحركة الإباضية ، ص ١٣٦).

(١) السير وأخبار الأئمة لأبي زكريا الوارجلاني - تحقيق عبد الرحمن أيوب ، ص ٦٠.

(٢) كتاب السير للبدر الشماخي ، ص ١١٤.

وهذا يدل على غزارة علمهم ، وحضور بديهتهم ، ولذلك نجد أن هذه البعثة استطاعت تحقيق دور كبير في نشر هذا المذهب ، وإرساء قواعد أول إمامة للإباضية في المغرب العربي.

الدور الديني والسياسي لحملة العلم :

رجعت البعثة إلى المغرب سنة (١٤٠هـ) ، وعمدوا حين وصولهم إلى نشر المذهب ، وتوضيح مبادئه ، ورسم معالمه ؛ فأنشأوا حلقات تعليمية ومجالس سرية على غرار مجلسهم بالبصرة واقتداء بإمام المرسلين عليه السلام عندما اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم لنشر الدعوة في عهدها السري في مكة المكرمة ؛ فكانوا مثلاً للعالمين العاملين ، وبفضل هذه الحلقات العلمية استطاع هؤلاء نفر أن يخرجوا من حلقاتهم تلاميذ أسهموا بدورهم في إكمال مسيرة الدعوة الإباضية سموها فيما بعد بـ "طبقة تلاميذ حملة العلم" ، ومن أشهر هؤلاء : أبو خليل الدركلي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ومحمد بن يانس ، وعمر بن يمكن^(١) .

واستطاع الأخير أن يفتح مدرسة لتعليم القرآن الكريم وتفسيره في جبل نفوسة.

ولم يقتصر دور حملة العلم على إنشاء الحلقات العلمية بل امتد نشاطهم إلى بلدان المغرب الأوسط والأقصى ، وزادوا عدد الدعاة الذين أصبحوا يجوبون المنطقة من برقة شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً . ليس هذا فحسب بل إنهم بدأوا بتنظيم أنفسهم إدارياً^(٢) ، كل ذلك توطئة لإعلان الإمامة وتكوين الدولة الإباضية ، فلما أحسوا من أنفسهم قوة تحول نشاطهم إلى الجانب السياسي.

(١) نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٧.

(٢) نشأة الحركة الإباضية ، ص ١٣٨.

ولقد ساعدت عوامل عدة على هذا التحول من ضمنها :

١- الثورات التي فجرها الصفريّة ضدّ ولاية بني أمية بدايةً بميسرة المطغري سنة (١٢٢هـ) ، ثمّ خالد بن حميد الزناتي الذي هزم ولاية بني أمية في معركة الأشراف ومعركة سبو ، وانتهاءً بعكاشة الفزاري "الذي انطلق من قابس تجاه القيروان، وانسحب إلى الصحراء" (١) .

هذه الثورات شجعت الإباضية على إعلان إمامتهم ، وكانت بمثابة الانطلاقة الأولى لحرية البربر.

٢- سرعة انتشار المذهب الإباضي كبديل للمذهب الصفري الذي أخذ يتقلص شيئاً فشيئاً في المغرب الأقصى لسوء أحوال قاداته ، وإعمالهم السيف قتلاً وسلباً لأنفس وأموال المسلمين ، مما جعل البربر ينفرون منهم ، ويحملون بإمامة عادلة بعيداً عن قمع الصفريّة واضطهاد الأموية.

٣- محاولات الإباضية قبل مجيء حملة العلم لإقامة إمامة لهم ، والتي منيت بالفشل ابتداءً من عبد الله بن مسعود التجيبي ، الذي استمال قبائل زناته وهوارة ، وقتل على يد إلياس بن حبيب والي طرابلس ، وانتهاءً باختيار إسماعيل بن زياد النفوسي سنة ١٣٢هـ لزعامة الإباضية ومقتله على يد عبد الرحمن بن حبيب (٢) .

٤- في أثناء محاولات الإباضية لإعلان دولتهم حدث تغير كبير في شأن الخلافة الإسلامية ، حيث آلت إلى بني العباس الذين تمكنوا من انتزاعها من الأمويين ؛ هذا التحول أيضاً شجع الإباضية على ولوج باب السياسة خاصة بعد

(١) الإباضية بالجريد : صالح باجيه ، ص ٣٢ ، ط. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ١٩٧٦م.

(٢) الإباضية في المغرب العربي ، ص ٢٣.

روال الحكم الأموي الذي اضطهد الإباضية مشرقاً ومغرباً ، ولكن سرعان ما فطن الإباضية إلى سياسة الخلافة الجديدة فيما بعد ، وخاضوا معهم حروباً متكررة.

هذه العوامل أسهمت - ولا شك - في بزوغ فجر الإمامة الإباضية ، فبويج أبو الخطاب المعافري أحد حملة العلم سنة (١٤٠هـ) في بلدة صياد سرا عملاً بوصية الإمام أبي عبيدة عليه السلام إلا أن الإمام الجديد وجد نفسه أمام فتنة لم تخمد بعد ، وهي الولاية والبراءة من عبد الجبار والحارث (١) ، ففريق يتولى الحارث ويتبرأ من عبد الجبار ، وآخر على عكسه ، فعمد - كأول عمل له - إلى إخماد هذه الفتنة التي استمرت ثماني سنين وأمر الإباضية جميعاً بالكف عن هذا الحديث ، وعدم الولوج فيه ، ثم توجه أبو الخطاب إلى طرابلس ، واستولى عليها ؛ وخير عاملها بين المقام أو الخروج إلى المشرق . ثم يمم نحو القيروان وفي فترة حصاره لها قُتل عاصم السدراتي أحد حملة العلم مسموماً؛ عندها عمّد أبو الخطاب إلى حيلة لدخول القيروان ونهاية حصاره ، وكان ذلك سنة (١٤١هـ) ، وترك عليها عبد الرحمن بن رستم ، ثم قفل راجعاً إلى طرابلس . في هذه الفترة أنفذ أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي جيشاً قوامه خمسون ألف رجل ، وقيل : سبعون ألفاً ، وأمر عليه محمد بن الأشعث الخزاعي لقتال الإباضية فالتقى الجمعان بتاورغا (٢) سنة (١٤٤هـ).

في هذه المعركة استشهد أبو الخطاب عليه السلام وبعد ذلك أخذ عبد الرحمن بن

(١) ترجع جذور هذه الفتنة إلى ولاية الحارث بن تليد الحضرمي الذي بويج من قبل الإباضية سنة (١٣١هـ) ، فاستطاع هو وقاضيه عبد الجبار بن قيس المرادي أن يلحق الهزائم المتكررة بجيوش عبد الرحمن بن حبيب ؛ فدانت لهم المنطقة من طرابلس إلى قابس وسرت ، إلا أن عبد الرحمن بن حبيب والي أفريقيا عمّد إلى حيلة ، فقتل عبد الجبار والحارث غيلة ، ووضع سيف كل واحد منهما في الآخر ليهطن الإباضية أن أحدهما قتل صاحبه.

(٢) تاورغا مدينة تبعد ستة أميال في الجنوب الشرقي لمصراطة سرت.

ولقد ساعدت عوامل عدة على هذا التحول من ضمنها :

١- الثورات التي فجرها الصفريّة ضدّ ولاية بني أمية بدايةً بميسرة المطغري سنة (١٢٢هـ) ، ثمّ خالد بن حميد الزناتي الذي هزم ولاية بني أمية في معركة الأشراف ومعركة سبو ، وانتهاءً بعكاشة الفزاري "الذي انطلق من قابس تجاه القيروان، وانسحب إلى الصحراء" (١) .

هذه الثورات شجعت الإباضية على إعلان إمامتهم ، وكانت بمثابة الانطلاقة الأولى لحرية البربر.

٢- سرعة انتشار المذهب الإباضي كبديل للمذهب الصفري الذي أخذ يتقلص شيئاً فشيئاً في المغرب الأقصى لسوء أحوال قاداته ، وإعمالهم السيف قتلاً وسلباً لأنفس وأموال المسلمين ، مما جعل البربر ينفرون منهم ، ويحملون بإمامة عادلة بعيداً عن قمع الصفريّة واضطهاد الأموية.

٣- محاولات الإباضية قبل مجيء حملة العلم لإقامة إمامة لهم ، والتي منيت بالفشل ابتداءً من عبد الله بن مسعود التجيبي ، الذي استمال قبائل زناته وهوارة ، وقتل على يد إلياس بن حبيب والي طرابلس ، وانتهاءً باختيار إسماعيل بن زياد النفوسي سنة ١٣٢هـ لزعامة الإباضية ومقتله على يد عبد الرحمن بن حبيب (٢) .

٤- في أثناء محاولات الإباضية لإعلان دولتهم حدث تغير كبير في شأن الخلافة الإسلامية ، حيث آلت إلى بني العباس الذين تمكنوا من انتزاعها من الأمويين ؛ هذا التحول أيضاً شجع الإباضية على ولوج باب السياسة خاصة بعد

(١) الإباضية بالجريد : صالح باجيه ، ص ٣٢ ، ط. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ١٩٧٦م.

(٢) الإباضية في المغرب العربي ، ص ٢٣.

روال الحكم الأموي الذي اضطهد الإباضية مشرقاً ومغرباً ، ولكن سرعان ما فطن الإباضية إلى سياسة الخلافة الجديدة فيما بعد ، وخاضوا معهم حروباً متكررة.

هذه العوامل أسهمت - ولا شك - في بزوغ فجر الإمامة الإباضية ، فبويج أبو الخطاب المعافري أحد حملة العلم سنة (١٤٠هـ) في بلدة صياد سرا عملاً بوصية الإمام أبي عبيدة عليه السلام إلا أن الإمام الجديد وجد نفسه أمام فتنة لم تخمد بعد ، وهي الولاية والبراءة من عبد الجبار والحارث (١) ، ففريق يتولى الحارث ويتبرأ من عبد الجبار ، وآخر على عكسه ، فعمد - كأول عمل له - إلى إخماد هذه الفتنة التي استمرت ثماني سنين وأمر الإباضية جميعاً بالكف عن هذا الحديث ، وعدم الولوج فيه ، ثم توجه أبو الخطاب إلى طرابلس ، واستولى عليها ؛ وخير عاملها بين المقام أو الخروج إلى المشرق . ثم يمم نحو القيروان وفي فترة حصاره لها قُتل عاصم السدراتي أحد حملة العلم مسموماً؛ عندها عمّد أبو الخطاب إلى حيلة لدخول القيروان ونهاية حصاره ، وكان ذلك سنة (١٤١هـ) ، وترك عليها عبد الرحمن بن رستم ، ثم قفل راجعاً إلى طرابلس . في هذه الفترة أنفذ أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي جيشاً قوامه خمسون ألف رجل ، وقيل : سبعون ألفاً ، وأمر عليه محمد بن الأشعث الخزاعي لقتال الإباضية فالتقى الجمعان بتاورغا (٢) سنة (١٤٤هـ).

في هذه المعركة استشهد أبو الخطاب عليه السلام وبعد ذلك أخذ عبد الرحمن بن

(١) ترجع جذور هذه الفتنة إلى ولاية الحارث بن تليد الحضرمي الذي بويج من قبل الإباضية سنة (١٣١هـ) ، فاستطاع هو وقاضيه عبد الجبار بن قيس المرادي أن يلحق الهزائم المتكررة بجيوش عبد الرحمن بن حبيب ؛ فدانت لهم المنطقة من طرابلس إلى قابس وسرت ، إلا أن عبد الرحمن بن حبيب والي أفريقيا عمّد إلى حيلة ، فقتل عبد الجبار والحارث غيلة ، ووضع سيف كل واحد منهما في الآخر ليهطن الإباضية أن أحدهما قتل صاحبه.

(٢) تاورغا مدينة تبعد ستة أميال في الجنوب الشرقي لمصراطة سرت.

رستم يهيئ الظروف لتأسيس الإمامة ؛ فأعد عدته منذ سنة (١٤٧هـ) وعمد إلى نقل عاصمة الإمامة من طرابلس في المغرب الأدنى إلى تاهرت في المغرب الأوسط على خلاف ما اتفق عليه حملة العلم الخمسة من جعل طرابلس عاصمة للإمامة الإباضية ، وذلك لما رأى قربها من مركز الخلافة العباسية ، ووقعها بين شقي الرحا : القيروان ، وعاصمة بني العباس.

بويح الإمام عبد الرحمن إماماً للإباضية سنة (١٦٠هـ) وكانت مبايعته إيذاناً بعهد جديد ، يعد بحق العصر الذهبي للإباضية في المغرب لم يروا قبله ولا بعده. فلقد استطاع الإباضية فيه تطبيق مبادئهم ، وممارسة نفوذهم طيلة الحكم الرستمي الذي استمر حتى سنة (٢٩٦هـ) ، بل امتد تأثير هذه الفترة من الحكم الإباضي وبقيت ثمارها حتى بعد زوال دولة الرستميين ، فظلت أعلام الإباضية تخفق في شمال أفريقيا وظل أهلها يتنسمون عبقها جيلاً بعد جيل ، وكان أهم ما حققته إمامة تاهرت وما جنته بلدان المغرب من ثمار :

١- توسع انتشار المذهب الإباضي ابتداء من المغرب الأدنى ومروراً بالمغرب الأوسط وانتهاء بالمغرب الأقصى وبلاد السودان.

٢- وبالمقابل تقلص مذهب الصفرية حتى لا يكاد يُرى له أثر في شمال أفريقيا بعدما لاقى نجاحاً في فترة الثورات الصفرية المتتالية وانصهر أتباعه في زمرة الإباضية بعدما تخلوا عن أفكارهم الهدامة.

٣- نشاط الحركة الاقتصادية والعلمية والدينية في هذه الفترة ورسوخ مبادئ الإسلام من المساواة والشورى وغيرهما بين البربر ، وهو أمر طبيعي حيث إن النمو الاقتصادي والرخاء الاجتماعي مرهون بالأمن الذي تكفله شريعة الإسلام الغراء في أي قطر وعلى مر الأزمان ، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ؛ فهذه

الدولة لم يكتب لها الدوام ، ودوام الحال من المحال ، حيث انتهت هذه الدولة بمقتل أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان^(١) ، وانحسر المذهب الإباضي وأتباعه ، وخاصة بعد معركة " مانو " سنة (٢٨٣هـ) ، والتي قتل فيها أربعمئة من علماء الإباضية ، ومن العامة اثنا عشر ألفاً ، وكانت هذه المعركة بين الإباضية ، وإبراهيم ابن أحمد الأغلب الذي بعثه المتوكل الخليفة العباسي لقتال الإباضية بتاهرت ، إلا أن " نفوسة " صدمته في معركة ضارية بموقعة مانو ، وكان ذلك في عهد أبي حاتم. وبفناء الإباضية في " نفوسة " انقطع المدد الذي كان يصل الإمامة بتاهرت حيث كان عليها الاعتماد في الناحية العسكرية ، وكما يقال في سير الإباضية "إنما قام هذا الدين بأموال مزاته وسيوف نفوسة"^(٢).

ثم تبعت ذلك ثورات إباضية أخرى أدت إلى انحسار المذهب ، وبقيت الإباضية إلى يومنا هذا في شمال إفريقيا متمركزة بجبل نفوسة ، وزواره بطرابلس في ليبيا ، وجزيرة جربة بتونس ، ووادي ميزاب ووارجلان بالجزائر ، ولكن مع تفرق الإباضية وانحسارهم لم تنته الحركة العلمية والثقافية ، بل أصبحت متواصلة حتى يومنا هذا ، وظهر عبر القرون أعلام أثروا المكتبة الإسلامية ، وأسهموا بجهود عظيمة في الدفاع عن حياض هذا الدين ، وظلت مؤلفاتهم شائعة ، وشاهداً على مكانتهم وعصارة فكرهم نبراساً للأجيال من بعدهم ، ومن هؤلاء شيخنا العلامة أبو عمار عبد الكافي التناوتي الوارجلاني الإباضي الذي ظهر في القرن السادس الهجري والذي نتناول فكره وعصره وشخصيته في الصفحات التالية إن شاء الله.

(١) كان مقتل أبي حاتم سنة (٢٩٤هـ) على يد إخوانه ظناً منهم أنهم أحق بها منه ، وبعدها نصبوا اليقظان ابن أبي اليقظان الذي آل أمره إلى القتل على يد عبيد الله الشيعي سنة (٢٩٦هـ) وسقوط تاهرت ، وانقراض الدولة الرستمية . (انظر الأزهار الرياضية ص ٢٩١ ، طبقات الدرجيني ، ص ٨٧.

(٢) طبقات الدرجيني ، ص ٨٧.

المبحث الأول

الناحية السياسية

— تمهيد.

— المطلب الأول : جغرافية وارجلان وتأثيرها السياسي.

— المطلب الثاني : مبادئ الإباضية السياسية.

— المطلب الثالث : وارجلان من [٤٥٠هـ — ٦٢٤هـ].

الفصل الأول

عصره من الناحية

— السياسية.

— الاجتماعية.

— العلمية.

مُلْهِئَةً

إن تحديد الفترة التي يتناولها البحث في عصر الشخصية هو أمر بالغ الأهمية بل من ضروريات الرسالة ولقد كنت في حيرة من الأمر لتحديد بداية الفترة ونهايتها وخاصة أن الناحية السياسية مليئة بالأحداث على فترات تاريخ "وارجلان" منذ الفتح الإسلامي ودخول المذهب الإباضي ، وحتى عصرنا هذا ، ولكن مع البحث المتواصل في تاريخ هذه البلاد عثرتُ على تقسيم فترات تحولاتها السياسية عبر عصورها المختلفة والتي كانت فاتحة كتابة هذا المبحث فالمؤرخ الكبير الشيخ إبراهيم بن صالح أعزام ت [١٩٦٥] — رحمه الله تعالى — قسم الفترات التاريخية للأحداث السياسية بوارجلان في كتابه "غصن البان في تاريخ وارجلان" إلى أربعة عهود :

العهد الأول : من الفتح الإسلامي إلى سنة ٤٥٠هـ تقريبا.

العهد الثاني : من ٤٥٠هـ إلى ٦٢٤هـ تقريبا.

العهد الثالث : من ٦٢٤هـ إلى ١٠٤٠هـ تقريبا.

العهد الرابع : من ١٠٤٠هـ إلى ١٢٨٦هـ تقريبا.

وتوقف عند هذا العهد^(١) ولذلك فإن العهد الثاني وهي الفترة بين [٤٥٠هـ - ٦٢٤هـ] هي الأقرب إلى عصره وهي الفترة ما بين منتصف القرن الخامس والربع الأول من القرن السابع والتي سنتناولها في هذا المبحث وإن كانت ثمة إشارة إلى ما قبل أو بعد هذه الفترة بقريب أو بعيد فهو من باب اتصال حلقات البحث لتتكمّل صورته.

(١) غصن البان في تاريخ وارجلان — إبراهيم أعزام (مخطوط) نقلا عن الإباضية في موكب التاريخ ت/ علي يحيى مج ٣ ص ٣٧٣.

المطلب الأول: جغرافية وارجلان وتأثيرها السياسي:

إن جغرافية واستراتيجية أي بلد لها تأثير على مجريات أحداثها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها وبحكم موقع وارجلان الاستراتيجي باعتبارها حلقة الوصل بين بلاد السودان وبلدان المغرب العربي [الجزائر وليبيا وتونس وغيرها] في تلك الفترة أثر ذلك سلبا أو إيجابا على وارجلان في مختلف مناحي الحياة فيها.

وقبل الحديث عن تأثير الجغرافية على الناحية السياسية بوارجلان في تلك الفترة ارتأى البحث إعطاء فكرة عن أصل إطلاق لفظ وارجلان ومعناه عند الباحثين والمؤرخين.

— تعريف وارجلان :

جاءت وارجلان عند المؤرخين على عدة إطلاقات فيقال : "وارجلان ، واركلان ، ورقله ، وارقلان"^(١).

ومع تعدد هذه الإطلاقات إلا أنها تتقارب في لفظها فـ "وارجلان ، واركلان ، وارقلان" حروفها في سائر كلماتها الثلاث واحدة ما عدا أن الأولى جاءت بالجيم والثانية بالكاف والثالثة بالقاف وهذا ما يجعلنا نرجح أن المقصود واحد من الكلمات الثلاث ولكن الاختلاف بينها في هذا الحرف يعود سببه إلى تغاير لهجات المؤرخين ، وهذا ما يحصل في المصر الواحد فضلا عن أن يكون المؤرخون من أمصار مختلفة.

(١) غصن البان في تاريخ وارجلان ، للمؤرخ الشيخ إبراهيم أعزام مخ نقلا عن الإباضية في موكب التاريخ ت/ علي يحيى معمر المجلد الثالث ص ٣٧٠.

أما "ورقله" التي وردت عند المؤرخ إبراهيم أعزام فالمرجح أنها عاصمة وارجلان وهي التي أشار إليها بهذا المعنى في مخطوطه حيث يقول : ((وورقله اسم لعاصمة بلاد كثيرة تحت نفوذها يسكنها الآن أخلاط من الإباضية والأعراب ورجال الحبشان))^(١).

بينما يرى ياقوت الحموي أن عاصمة وارجلان هي "جوهه" أو "فجوهه" يقول : ((جُوْهَه بالضم ثم السكون وفتح الهاء الأولى بليدة بالمغرب الأقصى في أقصى إفريقية وهي قصبة كسورة مجاورة لبلاد الجريد تسمى ورجلان))^(٢).

ويقول في موضع آخر من الكتاب : ((ورجلان كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر وبجانة واسم مدينة هذه الكورة فجوهه))^(٣) ، ولعله قصد " بجوهه ورقله " وإلا فإن المؤرخ " أعزام " أثبت لدينا من الحموي لأنه أدري ببلده من غيره.

أما عن معنى " وارجلان " يرى "جوليتو" أن كلمة "وار" عند البربر تعني أولاد أو أبناء وتأتي في بداية الاسم مثل "وارفجوهه" ، " وارفلا " ، وإكلى وإيكلان الأولى تعني أسود والثانية جمعها سود أي أبناء السمر أو الزنوج^(٤).

(١) غصن البان في تاريخ وارجلان ، للمؤرخ الشيخ إبراهيم أعزام مخ نقلا عن الإباضية في موكب التاريخ ت/ علي يحيى معمر المجلد الثالث ص ٣٧١.

(٢) معجم البلدان ياقوت الحموي ج ٢ ص ١٩١ دار صادر ، بيروت ١٩٩٦م.

(٣) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٧١.

(٤) Jean lethileux, Ouargla cite sharienne paris paul geuthner, 1984,

نقلا عن معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان رسالة ماجستير مقدمه من الباحث عمر سليمان بوعصابة ص ١٠ - طبعة المعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر.

موقعها الجغرافي وتأثيره السياسي :

تقع وارجلان في أقصى الجنوب الجزائري وتعتبر امتدادا لتجمعات الإباضية في صحراء الجنوب مع أنها أصل التواجد الإباضي في تلك البقعة ومنها انتقل الإباضية إلى وادي ميزاب ، وكوّنوا قراها السبع "غردايه وبني يسجن وبنوره ومليكه والعطف وبريان والقراره".

يقول صاحب "تاريخ الجزائر" : ولما غصت بلاد وارجلان وأريغ برجال الإباضية وأرادت أن تتنفس في معيشتها فيما جاورها ، رأت جبال بني مصعب "وادي ميزاب" أحسن ملجأ لها وأمنع حصن لأجياها فتكاثرت الهجرة إليها منها^(١).

وامتازت وارجلان "بموقعها الجغرافي في قلب الصحراء الكبرى بعيداً عن المراكز العمرانية للمغرب الإسلامي وتوسطها لمسالك التجارة بين مدن التل وبلاد السودان"^(٢).

وأتاح لها هذا الموقع الذي يربط بين الصحراء وبلاد الشمال وبين تونس والجزائر الرقي الاقتصادي الكبير في فترات ازدهارها كما أتاح لها بُعدها عن التجمعات بالمدن أن تكون في منأى عن الصراعات السياسية في غالب فترات تاريخها ، وتبلور ذلك في موقفها تجاه هذه الصراعات التي كانت تقف موقف الحياد تارة ، والدفاع تارة أخرى ، كما سيأتي بيانه فيما بعد.

(١) توفيق المدني تاريخ الجزائر ص ١١٠ نقلا عن الإباضية في موكب التاريخ ص ٤٠٥ المجلد الثالث علي يحيى معمر.

(٢) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٢٩ ط. وزارة التراث - سلطنة عمان ١٩٩٥م.

ولذلك فإن استراتيجية الموقع لوارجلان والذي جاء من نقطتين

أساسيتين:

- ١] بعدها عن التجمع السكاني في المدن الكبيرة.
 - ٢] قربها من الحدود الفاصلة بين بلدان المغرب وبلاد السودان.
- أثر إيجابا وسلبا في آن واحد على مجريات الحياة السياسية فهي موطن الرخاء الاقتصادي وهدف الطامعين والمنحرفين.

المطلب الثاني : مبادئ الإباضية السياسية :

لكي نفهم التصرف السياسي لأي شعب من الشعوب في أي فترة من الفترات لابد لنا من أن نلقى نظرة على المبادئ والركائز السياسية التي يتبنها أهله لأن غالب الأمم لا تتأثر توجهاتها السياسية بالأهواء الشخصية بل لابد أن يكون هنالك منهج رسمته لنفسها وسارت عليه في حياتها ولذلك نجد أن " وارجلان " في كافة فتراتها لم تخرج توجهاتها السياسية عن مبادئ الإباضية كما أنها لم تخضع لأهواء شخصية بل اعتمدت على مبدأ التسيير الجماعي الذي تحكمه الدولة الإباضية تارة ، وحلقة العزابة تارة أخرى.

- أهم مبادئ الإباضية في السياسة :

(أ) المبادئ العامة:

- ١- عقد الإمامة فريضة بفرض الله الأمر والنهي - والقيام بالعدل وأخذ الحقوق من مواضعها ، ووضعها في مواضعها ومجاهدة العدو والدليل عليها من الكتاب والسنة والإجماع^(١).
- ٢- رئاسة الدولة الإسلامية (الخلافة) ليست مقصورة على قريش أو العرب ، وإنما يراعى فيها الكفاءة المطلقة فإن تساوت الكفاءات كانت القرشية أو العروبة مرجحا.
- ٣- الإمام يختار عن طريق الشورى وباتفاق أغلبية أهل الحل والعقد.

(١) دليل فرضية الإمامة من الكتاب : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » آل عمران (١٠٤) ، أما من السنة فقوله ﷺ : ((الإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته)) رواه البخاري ومسلم ، أما الإجماع : فقد أجمع أهل الحل والعقد على إقامتها اقتداء بالنبي ﷺ وخلفائه الراشدين (الفكر السياسي عند الإباضية - عدون جهلان ص ١٣٨-١٣٩ ط. مكتبة الضامري سلطنة عمان ١٩٩١م).

٤- الإمام هو المسؤول عن تصرفات ولاته ، ويستحسن له أن يستشير أهل الحل والعقد من أهل كل منطقة في تولية العمال عليهم وعزلهم عنهم.

٥- لا يحل الخروج على الإمام العادل.

٦- الخروج على الإمام الجائر ليس واجبا كما تقول الخوارج وليس ممنوعا كما تقول الأشاعرة^(١) وإنما هو جائز يترجح استحسان الخروج إذا غلب على الظن نجاحه ويستحسن البقاء تحت الحكم الظالم إذا غلب على الظن عدم نجاح الخروج أو خيف أن يؤدي إلى مضرة تلحق المسلمين أو تضعف قوتهم.

٧- الحاكم الجائر يطالب أولا بالعدل فإن لم يستجب طوّل باعتزال أمور المسلمين فإن لم يستجب جاز القيام عليه وعزله بالقوة ولو أدى ذلك إلى قتله إذا كان لا يؤدي إلى فتنة أكبر.

٨- يجوز أن تتعدد الإمامات في الأمة المسلمة إذا اتسعت رقعتها وبعدت أطراف البلاد منها أو قطع بين أجزائها عدو بحيث يعسر حكمها بنظام واحد أو يكون سببا لانحيارها وتشتت قواها وتعطل مصالح الناس فيها.

٩- لا يجوز الاعتداء على دولة مسلمة قائمة داخل حدودها إلا ردا لعدوان.

١٠- لحكم الدار^(٢) في نظر الإباضية أربع صور كما يلي:

(١) إن الخوارج ترى امتشاق السيف واعتراض الناس لإزالة أئمة الجور أما الإباضية فلا ترى الاعتراض وإنما توجب إزالة أئمة الجور إذا أمكن ذلك سواء عن طريق السيف أو غيره وإلى نحو هذا ذهب المعتزلة والزيدية وجماعة كبيرة من المرجئة وأنكر أصحاب الحديث ومن تبعهم من الأشاعرة وأهل السنة عامة الخروج على السلطان وإن جار وظلم (أراء الخوارج الكلامية - ت/ عمار طالبي ج ١ ص ١١٨ ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٨م).

(٢) مفهوم "الدار" يعني البلاد ومفهوم "المعسكر" يعني الحكومة عند الإباضية.

أ. الدار دار إسلام ومعسكر السلطان معسكر إسلام ، وذلك عندما يكون الوطن مسلما والأمة مسلمة والدولة تعمل بكتاب الله.

ب. الدار دار إسلام ومعسكر السلطان معسكر إسلام إلا أنه معسكر بغي وظلم ، وذلك عندما يكون الوطن مسلما والأمة مسلمة والدولة مسلمة لكنها لا تنهج المنهج الإسلامي في الحكم سواء كانت من الإباضية أو من مخالفيهم.

ج. الدار دار إسلام ومعسكر السلطان معسكر كفر وشرك ، وذلك عندما يكون الوطن مسلما والأمة مسلمة والحاكم دولة مستعمرة مشرقة كتابية أو غير كتابية.

د. الدار دار كفر ومعسكر السلطان معسكر كفر ، وذلك عندما يكون الوطن للمشركين تسكنه أمة مشرقة وتتولى الحكم فيه دولة مشرقة^(١).

ب) مسالك الدين :

هي مسالك وليدة الفكر السياسي الإباضي لم يقل بها أحد من أهل الفرق الإسلامية الأخرى فحازوا قصبات سبق في تلك وهي عندهم على أربعة أنماط :

١- إمامة الظهور: وهي أن تقدم الأمة على مبايعة إمامها عندما تجدد في نفسها قوة لذلك، وهي أعلى مراتب هذه المسالك الأربع ، وتهدف إلى إقامة دولة

(١) هذه المبادئ نقلتها عن "الإباضية مذهب إسلامي معتدل" ت/ الشيخ علي يحيى معمر ص ٢٧، ٢٦، ٢٥ ط. مطابع النهضة سلطنة عمان.

عادلة مستدلين بقوله - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) ، ويشترط لذلك توفر القوة الكافية في العدد والعدة وتكون السلطة بانتخاب إمام وحكومة عادلة تعمل على تسييس الرعية وإنفاذ أحكام الشرع ، ويتوفر لديها السلاح والعلم والمال والرجال ، ومثاله النبي ﷺ حين أسس دولة الإسلام بالمدينة ، وكذلك الإمامة الرستمية التي قامت مائة وخمسين عاما في تاهرت الإباضية.

٢- إمامة الدفاع : وهي التي قد تكون قبل سقوط إمامة الظهور أو بعدها ، وتهدف للدفاع عن الدين ومحاربة الفساد مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) ، ويشترط في إمامة الدفاع أن تكون بسبب انتشار الفساد أو ظهور عدو عند غياب الإمام المنتخب ، فتقوم الأمة بمبايعة شخص سرعان ما ينزل بانتهاء الحرب أو بقمع الفساد وهو إمام وقتي يزول بزوال السبب مثل مبايعة عبد الله بن وهب الراسبي صاحب النهروان.

٣- إمامة الشراء : وهي محاولة تغيير المنكر بعدد لا يقل عن أربعين رجلا مصداقا لقوله - تعالى - : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ^(٣) ، فيختار المسلمون قائدا منهم يقاتل فينتصر أو يموت ، وذلك في حالة كون عدوهم أكثر منهم مثل مبايعة الإباضية أبا بلال مرداس بن حيدر ^(٤).

^(١) سورة المنافقون الآية : ٨

^(٢) سورة المائدة الآية : ٣٥

^(٣) سورة التوبة الآية : ١١١

^(٤) حول مزيد من التفصيل عن هذه الشخصية ينظر "العقود الفضية في الأصول الإباضية" للشيخ سالم بن حمد الحارثي ص ١٠٧

٤- إمامة الكتمان : وهي التي تكون في حالة عدم التمكن من إظهار أي مسلك من المسالك المتقدمة ، ولكي يحافظ المسلمون على عبادتهم وعقيدتهم مع عدم قدرتهم على تغيير المنكر فإنهم يعمدون إلى تعيين رجل منهم يتولى أمرهم سرا وذلك مثل ما فعل النبي ﷺ بمكة وفعل جابر بن زيد بالبصرة في العهد الأموي ^(١).

هذه هي مجمل الآراء السياسية الإباضية التي ترجمت إلى واقع ملموس خلال مراحل انتشار المذهب الإباضي وقيام دولته بالمغرب وحتى سقوطها وما بعده ، ولذلك نجد أن "وارجلان" في مختلف عصورها كانت مثالا واقعا لتطبيق مبادئ هذا المذهب السياسية كما نجد المواقف السياسية الخارجية "لوارجلان" تنقسم إلى قسمين :

- أ . مواقف حيادية في حالة عدم اقتناعها بمشروعية الحرب.
- ب . مواقف دفاعية في حالة هجوم العدو عليها أو على المتحالفين معها ^(٢). وهو ما يدل على تمسكها بمبادئ المذهب وعدم خروجها عن مسلكه.

^(١) مسالك الدين نقلا عن الفكر السياسي عند الإباضية ت/ عدون بن جهلان ص ١٥٧ بتصرف ط.

المطلب الثالث : [وارجلان من ٤٥٠هـ - ٦٢٤هـ]

تعتبر هذه الفترة في تاريخ وارجلان من أحلك فترات وأصعب أيامها ، فما تكاد تنتهي غزوة إلا ويظهر في الأفق غبار أخرى ولا يخمد أوار ثورة إلا وتشتعل ثورة جديدة ، بل ما يكاد يأفل نجم دويلة إلا ويبرز نجم دويلة جديدة قامت على أنقاض سابقتها وهكذا دَوَّالَيْكَ.

" وارجلان " أمام هذه الصراعات تقف موقف المحايدين تارة والمدافع تارة أخرى بعيدة عن سلطان هذه الدويلات ، نائية بنفسها عن رحاها " ولقد استطاع العزابة^(١) في هذه الفترة أن يحتفظوا بالسلطة كاملة وأن يستمسكوا بقيادة الأمة وأن يحافظوا على النهج القويم الذي كانوا يسرون عليه من قبل^(٢).

وعندما يشتد الأمر على أهل " وارجلان " يصعب عليهم صد العدوان وتضيق الحيل أمام الهجوم المباغت يتركون حينها بلادهم شبه مفتوحة لهذه الهجمات الضارية حفاظا على الأنفس " فلا يعترضون سبيلها ولا يخضعون لها وإنما يتركونها تمر كما تمر العاصفة يتطامنون لها حتى إذا تجاوزتهم وقفوا^(٣).

ويبدأ تاريخ البلاد السياسي في هذه الحقبة بالدولة الصنهاجية والتي أسسها " بلكين بن زيري^(٤) " بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ولقد بقيت هذه

(١) العزابة هي جماعة دينية تحكم البلاد في حال عدم وجود دولة تدير نظامها وهو ما انفرد به المغاربة من فكر اجتماعي وسبقوا إياهم المشرق إليه، ولقد أثبتت العزابة فعاليتها في الجانب الاجتماعي والعلمي أكثر منها في الجانب السياسي ، وحول مزيد من التفصيل عن العزابة لنا وقفة متعمقة معها في الناحية الاجتماعية إن شاء الله

(٢) الإباضية في موكب التاريخ ت/ علي يحيى معمر مج ٣ ص ٣١٢

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣١٢

(٤) هو بلكين بن زيري مؤسس الدولة الصنهاجية في المغرب الأوسط تولى الحكم سنة ٣٦٢ بعد خروج الفاطميين من المغرب - تاريخ ابن خلدون مج ٦ ص ١٥٥

الدولة على ولائها للفاطميين تدين بالمذهب الشيعي ومع مرور الأيام بدأ هذا الولاء يتقلص شيئا فشيئا حتى انقطع جبل الوصال في عهد المعز بن باديس الصنهاجي "الذي استشعر القدرة على تمام الاستقلال عن الدولة العبيدية الشيعية فقطع الصيغة العلوية من الأذان وجهر بالمذهب السني واتصل بالخليفة العباسي القائم بأمر الله وأمر بالخطبة له على منابر المهدي والقيروان بدلا من المستنصر بالله الفاطمي"^(١).

وبلغ بالمعز الكره للشيعية أن أخذ يطارد أتباع المذهب الشيعي بالمغرب ويستأصل جذورهم ويقتل بالشبهة ، ولم يقتصر على ذلك فقط بل تطاولت يده إلى الفرق الإسلامية المخالفة ومنهم الإباضية "فزل عسكر لصنهاجة على قلعة بني درجين - بليبيا - سنة ٤٤٠هـ وحاصروها وقتلوا الإباضية بها واستبيح ما فيها وهدمت"^(٢).

مما دفع من بقي من الإباضية إلى الهروب من جحيم الصنهاجيين إلى " وارجلان " والتي كانت بعيدة عن نفوذ هذه الدولة رغم محاولات الاستيلاء عليها والتي باءت بالفشل ولذلك كانت " وارجلان " في عهد هذه الدولة ملاذا للإباضية الفارين من سيوف بني زيري ، وموطنا آمنا بعيدا عن الصراعات التي وقعت تجاهها " وارجلان " على الحياض.

ولما رأت الدولة الفاطمية في مصر ما آل إليه أمر الشيعة في المغرب ومدى ما وصل إليه بنو زيري من نكران الجميل أغرت قبائل بنو هلال وسليم أن يقصدوا نحو شمال أفريقيا لاجتثاث ملك الصنهاجيين.

(١) الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ت/ الدكتور عبد الحميد يونس ص ٧٣ ط. دار المعرفة القاهرة سنة ١٩٦٨م

(٢) طبقات المشايخ بالمغرب لأبي العباس الدرجيني ص ٤٠٧ ج ٢ بتصرف

وقبائل هلال وسليم عربية الأصل وهي من القبائل التي احترفت السلب والنهب تعتمد عليه في ارتزاقها ، "فهم يكرهون النظام ويطربصون بالسلطان ويعيشون على الغنيمة ، ولا يحتفظون بالمذاهب الدينية إلا بمقدار اتصالها بمنافعهم وتبريرها لفعالهم"^(١).

ولذا وجد المستنصر بالله في هذه القبائل بغيته كما أنه أراد أن يبعد خطرهما عن صعيد مصر "خاصة بعدما عانت الدولة الفاطمية الأمرين من هؤلاء العرب الهلالية شرقي مصر وغربها على السواء حتى أصبحوا مشكلة من أهم المشكلات التي تواجهها"^(٢).

استطاع بنو هلال وسليم دخول برقة وهزيمة المعز بن باديس ثم دخول القيروان وتبع فلول صنهاجة المنهزمة.

وعندما تم لهم ما أرادوا مالوا على زناته "فعاجوا على ما هنالك من الأمصار فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياح والمدن فتركوها قاعا صفصفا أفقر من بلاد الجن ، وأوحش من جوف العير ، وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد"^(٣).

ولا غرو أن تنال "وارجلان" نصيبها منهم شأنها شأن بلدان الشمال الأفريقي "وإن كانت في أغلب الأوقات تقف للمعتدين بالمرصاد ترد عليهم ما يقومون به عليها من صولات وجولات مما جعلها تعيش طيلة هذا العهد على استعداد دائم لترد عدوان المعتدين"^(٤).

(١) الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ت/ الدكتور عبد الحميد يونس ص ٧١، ٧٠ ط. دار المعرفة القاهرة سنة ١٩٦٨م

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧١

(٣) تاريخ ابن خلدون ص ١٩ مج ٦ ط. مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت

(٤) الإباضية في موكب التاريخ ت/ علي يحيى معمر ص ٣٨٤ مج ٣

وفي عام ٥١٦هـ قامت الدولة الموحدية بالمغرب وأخذ مؤسسها "المهدي بن تومرت" يبعث رسله إلى قبائل المغرب العربي للانضواء تحت لواء الدعوة المهدية ، وتذكر المصادر الإباضية أن "ابن تومرت" أرسل إلى وارجلان "العتروسي" أحد قواده مع جمع من أصحابه فتشاور أهل "وارجلان" في أمر هذه الدعوة "فأجمع رأي أكثرهم على قتله وأصحابه حتى لا يظهر لهم ذكر فقال علماؤهم : ما ضرنا أن نصل إلى الفقيه أبي يعقوب^(١) نعلمه بما وقع في نفوسنا ونأخذ ما عنده ، فجاؤوه بجمعهم فقالوا له : إن هذه خيل تدعو إلى سلطان قد ظهر وقد أجمعنا على أن نقتلهم قبل أن يعرفوا بلدنا فإننا نخاف أن يخربوا بلادنا إن عرفوها ، فقال لهم : هؤلاء لا يخربون بلدكم بل تنالون في أيامهم عزاً وإقبالا وتلقون منهم في بلادهم خير لقاء ... فأجيبوا دعوتهم فتلحوا"^(٢).

إن قبول أبي يعقوب الوارجلاني للدعوة الموحدية لم يكن محض صدفة أو مجرد فراسة في القوم بل إن لهذا القبول أسباباً ، ولعل أهم سبب هو التقارب الكبير في المبادئ بين الإباضية وابن تومرت ما عدا دعواه بأنه المهدي المنتظر وأنه معصوم ، ولذلك يشبه المؤرخ الإباضي "محمد علي دبور" الدولة الموحدية بالدولة الرستمية الإباضية فيقول : "إن الدولة التي كانت تشبه بالدولة الرستمية وعاشت مثل عمرها في المغرب هي دولة الموحدين إنها مثلها في اتخاذ الكتاب والسنة

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي لم نثر على تاريخ ولادته أما وفاته فكانت سنة ٥٧٠هـ وهو من علماء وارجلان كان معاصراً لأبي عمار عبد الكافي إلا أن أبا عمار توفي قبله له مؤلفات كثيرة منها العدل والإنصاف في أصول الفقه ، والدليل والبرهان في العقيدة ، وغيرها (انظر طبقات الدرجيني ص ٤٩١ ج ٢ ، سير الشماخي ص ٤٤٥، ٤٤٣)

(٢) طبقات المشايخ بالمغرب لأبي العباس الدرجيني ص ٤٩٤ ج ٢

دستور الدولة ، وفي عدم التعصب لمذهب من المذاهب ، وصفحة الدولة الرسمية
أنقى من الدماء المخطورة وأكثر عدلاً^(١).

وهكذا انضوت " وارجلان " تحت لواء الموحدين فارتبطت بالدعوة
الموحدية ارتباطاً معنوياً وبقيت تحافظ على كيانها نائية بنفسها عن حروب
الموحدين مع أعدائهم المرابطين إلا أن هذا الارتباط المعنوي لم يعذر " وارجلان "
من أن تستباح على يد يحيى بن إسحاق الميورقي^(٢) سنة ٦٢٤ هـ والذي مر على
وارجلان " كما يمر الإعصار فقتل الأنفس دون حساب ، وضرب المدن وغور
المياه ، وأحرق الغابات^(٣) . وقد انصبّت نقمته على سدراته " فهدم سورها
وتركها قاعاً صفصفاً وغادرها كأن لم تغن بالأمس^(٤) . فاضطر أهلها إلى الفرار
منها " وتوزع الفارون من سكان سدراته " ووارجلان " إثر ذلك على ميزاب
ووادي ملويه وتلمسان^(٥).

إلا أن الشيخ المورخ إبراهيم أعزام استبعد دخول الميورقي إلى وسط
وارجلان واقتصر تخريبه على مدينة سدراته فقط ، ولذلك فإنه يرى نزوح أهل
سدراته إلى وارجلان العاصمة حيث يقول : " وبعد خراب البلاد تفرق الباقي من

^(١) تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبوز ص ٦٢١ ج ٣ ط. عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٤م

^(٢) ينتمي يحيى الميورقي إلى قبيلة "مسوفة" وهم أبناء عمومة قبيلة لمتونة والقبيلتان بطنان من بطون
صنهاجة، وهو ابن علي بن يوسف الميورقي أحد ضباط جيش يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة
المرابطية ، ولقد صار يحيى قائداً من قواد المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، انظر :
الدول الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ت/ الدكتور عبد الله علي علام ص ٢٠٣ ط.
دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧١م

^(٣) الإباضية في موكب التاريخ ص ٣٨٥ مج ٣

^(٤) طبقات الدرجيني ص ٤٩٤ ج ٢

^(٥) معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ت/ عمر سليمان بوعصابه ص ٤٨

ساكنيها إلى وادي ملويه التي هي الحدود بين بلاد وارجلان والبلاد المراكشية ،
وبعضهم الآخر سكن وادي ميزاب والبعض الآخر انضم إلى وارجلان^(١).

ولم تستتب الأوضاع إلا بعد مطاردة الموحدين له وإبعاده عن هذه
المنطقة المسالمة، وهكذا شأن الميورقي مع الموحدين فما كاد يسيطر على منطقة إلا
وتبعه جيوشهم رادعة له.

هذه لمحة سريعة عن الأوضاع السياسية " بوارجلان " في هذه الفترة
الخرجة من عمرها والتي كان لها تأثير كبير على النواحي الاجتماعية والعلمية
والتي سنتناولها في الصفحات القادمة إن شاء الله.

^(١) غصن البان في تاريخ وارجلان للشيخ إبراهيم أعزام - مخطوط - نقلا عن الإباضية في موكب
التاريخ مج ٣ ص ٣٧١

المبحث الثاني

الناحية الاجتماعية

— المطلب الأول : التركيبة الطبقية وأثرها الاجتماعي.

— المطلب الثاني : المبادئ الاجتماعية للمذهب الإباضي

وأثرها في مجتمع وارجلان.

— المطلب الثالث : حلقة العزابة ودورها الاجتماعي

بوارجلان.

المطلب الأول : التركيبة الطبقية وأثرها الاجتماعي :

إن دراسة التركيبة الطبقية ، وتعدد أجناس أهل وارجلان يفتح أمام الباحث الطريق لمعرفة دوافع التصرف الاجتماعي ، ويعطي التبرير لهذا التحول في هذه المنطقة الصحراوية بالمغرب الأوسط.

فبالإضافة إلى الأصل البربري الغالب على أهلها ثمة مزج سكاني يجمع بين العرب والسودان ، ولعل السبب الرئيسي في هذا الخلط يعود إلى الهجرة بنوعها الموقته والدائمة والتي تعددت أسبابها بين السياسية والاقتصادية والعلمية. " فوارجلان " بموقعها الاستراتيجي بوصفها معبرا تجاريا بين بلاد السودان المترامية الأطراف وبلدان المغرب الأدنى والأوسط والأقصى جعلها موطناً مؤقتاً أو دائماً للتجار الذين يقدون ببضائعهم وجرّفهم وخاصة القادمين من "قسنطينة وتونس والذين وجدوا أهل " وارجلان " كرماء وظرفاء يستقبلون الغريب ويفرحون به"^(١).

وأما المهجرات السياسية فهي أكثر من أن تحصى عبر تاريخ " وارجلان "، فمع الأحداث والقلقل التي مرت بها " وارجلان " وبلدان المغرب تدافعت المهجرات من وإلى وارجلان فترح إليها بقية بني رستم فرارا من حжим العبيدين عشية سقوط الدولة الرستمية بتاهرت واستوطنوها ونقلوا معهم خبراتهم في مختلف العلوم والفنون ، كما فر إليها بنو درجين من ليبيا بعد سقوط قلعته في يد صنهاجه سنة ٤٤٠هـ ، وعندما اجتاحت الميورقي وارجلان سنة ٦٢٤هـ غادرتها أهلها إلى ميزاب وغيرها من البلدان.

(١) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٤٨ ط. وزارة التراث سلطنة عمان سنة ١٩٩٥م.

ومن الهجرات السياسية التي أثرت على التركيبة الطبقية بوارجلان هجرة بني هلال وسليم الذين نزحوا إلى معظم بلدان المغرب العربي حيث قدمت معهم قبائل عربية أخرى استوطنت " وارجلان " .

وأما الهجرات الطبيعية والتي كانت بسبب كوارث طبيعية فمثلها عندما حل القحط بإفريقيا " وتتابع الغلاء وسوء المعيشة من سنة ٥٣٧هـ - ٥٤٣هـ " (١) . هاجر أهل " وارجلان " إلى وادي ميزاب واستوطنوه وتتابع الهجرات إلى وارجلان في هذه الفترة " لشهرتها عند الإباضية في ذلك الحين ومنها كانوا ينتقلون إلى أنحوهم في بني مصعب وادي ميزاب " (٢) .

وأما الهجرات العلمية فمنها المؤقت ومنها الدائم ، كهجرات طلبة العلم من وارجلان إلى الأندلس وقرطبة حاضري العلم آنذاك وهجرة طلاب العلم من بلدان المغرب إلى " وارجلان " عاصمة الإباضية الثانية بعد تاهرت الذين يفدون إلى " وارجلان " للتعلم على يد مشايخها فمنهم من يبقى ، ومنهم من يرجع إلى بلده .

ولذلك فإن الشيخ علي يحيى معمر يحدد فترة هجرة أهل " وارجلان " من أوائل القرن الخامس وحتى الثالث الأول من القرن السابع فيقول : " لا شك أن كثيرا من سكان سدراته ووارجلان هاجروا إلى وادي ميزاب وقد استمرت تلك الهجرة المتقطعة من أوائل القرن الخامس ، وحتى الثالث الأول من القرن السابع ، وأسباب تلك الهجرة المتطاولة متعددة بعضها اقتصادي ، وبعضها علمي ، وبعضها سياسي " (٣) .

(١) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٤٨ ط. وزارة التراث سلطنة عمان سنة ١٩٩٥ م.

(٢) الإباضية في موكب التاريخ مج ٣ ص ٤١٨ ت/ علي يحيى معمر .

(٣) الإباضية في موكب التاريخ مج ٣ ص ٤٠٣ ت/ علي يحيى معمر .

ولذلك فإن الناظر لهذه الأجناس التي استوطنت وارجلان يجدها لا تخرج عن إحدى الطبقات التالية :

أ) البربر :

وهم أصل السكان ليس في وارجلان فحسب بل في بلدان المغرب عامة ولقد تعددت الآراء حول أصل تسميتهم " فبعضهم يرى أن اليونان أطلقوا كلمة بربر ، والرومان أطلقوا كلمة " بربري " جوراً ، ويقصدون بها الهمجية والتوحش " (١) .

ويرى بعضهم أنهم من ولد بر بن قيس وبر بن قيس هذا كثر نسله في البراري فقالت العرب تبربروا أي كثروا (٢) إلا أننا نميل إلى ماذهب إليه المؤرخ الإباضي الأستاذ محمد علي دبوز أن أصل البربر بلاد الشام ثم انتقلوا إلى المغرب حيث يقول : " وكان البربر في أول أمرهم في الشام مع أبناء عموماتهم وفلسطين فوقعت بين الطرفين حروب ، وحدثت بينهم فتن فهاجر البربر من الشام فساروا إلى المغرب فاستوطنوه ... وكانت تلك الهجرة في العصر الحجري وقبل ميلاد المسيح ﷺ بمدة لا تقل عن ثلاثين قرناً " (٣) وينسبهم إلى أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح ﷺ (٤) ويطلق عليهم لفظ الأمازيغ ويعني الشرفاء

(١) معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان عمر بو عصابة ص ١٩ .

(٢) الإسلام وتاريخه من وجهة نظر الإباضية ت/ ابن سلام الإباضي تحقيق : ف شفاتر وسالم بن يعقوب ط. دار إقرأ بيروت لبنان سنة ١٩٨٥ م ص ١٤٦ .

(٣) تاريخ المغرب الكبير ت/ محمد علي دبوز ج ١ ص ٢٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وهم السكان الأصليون لا الأخلاط ، ويسمون لغتهم "تمازغت" من نفس الاشتقاق السابق^(١).

فأصل تسميتهم "بربر" لا يعود إلى خلط كلامهم كما يرى بعضهم لأن الكثير من اللغات فيها خلط ومع ذلك لا يسمى أهلها بربرا ، ولا إلى توحشهم وإنما يرجع إلى نسبتهم إلى "بربر بن تملان مازيغ"^(٢).

وأما عن قبائلهم فهي (سدراته ، تناوته — ومنها العلامة أبو عمار عبد الكافي — وزناته) ومن زناته تنفرع بطون (بنووركلا) بنويفرن ، بنو مغزاوه ، بنو زنداك ، بنو ورماز)^(٣).

ولذلك يقول المؤرخ محمد دبوز : "ومن زناته ورجله ومن مدغما " ورجلان " وهي عاصمة الصحراء في الشرق الأوسط قبل الإسلام وبعده إلى القرن العاشر الهجري"^(٤).

ب) العرب :

يرى ابن خلدون أن استيطان العرب للمغرب كان أواسط المائة الخامسة للهجرة حيث يقول : ((إن العرب لم يكن لهم المغرب في الأيام السابقة بوطن ، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفريق بني هلال وبني سليم اختلطوا في الدول هنالك ، وكانت أخبارهم فلذلك استوعبناها ، وأما آخر موطن للعرب فكانت برقة^(٥))).

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٥ بتصريف.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٦.

(٣) معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ت/ أبو عصابة ص ٢٢ ، تاريخ ابن خلدون ص ١٣ مج ٢.

(٤) تاريخ المغرب الكبير ت/ محمد علي دبوز ص ٣٩، ٤٠.

(٥) تاريخ ابن خلدون مج ٦ ص ٨.

والذي أراه أن التقارب بين العرب والبربر قد أخذ صيغته عند الفتح الإسلامي الأول ، وذلك عندما حمل الفاتحون مشعل الهداية بالدين الجديد ، وعندما توغل العرب في أقطار المغرب الأوسط ثم الأقصى ، ولما جاء العصر الأموي ساءت العلاقة بينهم وبين العرب لتعسف الولاة وجورهم وانفك الرابط إلا أن التأثير والتأثير قد نال حظه ولو اليسير في تغيير لغة البربر وتعريبهم واقتباسهم العادات العربية وتعلمهم مبادئ الإسلام.

ولقد بلغ تأثر البربر بالعرب ولغتهم أوجهُ عندما جاءت قبائل هلال وسليم واتخذت من المغرب وطنا فأخذوا يشاركون أهلها حرفتهم الزراعة وخاصة بعدما هدأت القبائل الثائرة ونزعت عن بداوتها واستقرت في شتى بلدان المغرب.

ولم يكن الاندماج مقصوراً على بني هلال وسليم بل إن من القبائل العربية ما تزامن هجرتها مع الحملات الهلالية واندججت مع أهل " وارجلان " وهم بنو معقل " ويسمون أيضا الجعافرة نزحوا من المدينة إلى أسوان بأرض الصعيد في مصر وكانوا يمتنون التجارة وكان عددهم لا يتجاوز المائتين^(١) . فنموا واتسعت رقعتهم واستطاعوا أن يخطوا لأنفسهم مساكن في الصحراء وأخذوا ينتقلون من السوس إلى توات ثم تمنطيت ثم وارجلان ، واستقروا بها وما زالوا إلى الآن يعرفون ببيت " بنو معقل ".

والمصادر الإباضية لم تشر إلى استيطان بني هلال وسليم وارجلان ويعزون ذلك إلى "نفرة أهلها من هذه الحملات وما أحدثوه في وارجلان من

(١) معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ص ٢٨ ت/ أبو عصابة ، تاريخ ابن خلدون مج ٦ ص ١٠.

خراب وامتد ذلك إلى عدم مواكبتهم ومشاربتهم ويعتبرون ذلك تعففا لإعتبارهم غاصبين كل كسبهم حرام^(١).

أما بنو معقل فكانوا على العكس ولذلك رحب بهم أهلها وشاركوهم في التجارة وغيرها من الحرف.

(ج) العبيد :

إن دخول العبيد إلى وارجلان كان عن طريق تجارة الرقيق فلقد نالت حظها من ذلك خاصة أن موقعها الاستراتيجي كان عاملاً مهماً في جلب السودان ليس إلى وارجلان فحسب بل إلى كافة بلدان المغرب ولذلك نجد أن لفظ وارجلان — كما أسلفنا في تعريفها — ويعني أبناء الزوج ومن هذا الاسم نعرف مدى تأثير هذه الطبقة في مجتمع وارجلان.

ولقد تعددت مهن العبيد والإماء في مجتمعات المغرب ((فالجواني منهم إماء خدمة أو متعة وكان العبيد يقومون بأكثر الخدمة في مجتمع القرن السادس لأن الطبقات القادرة على تملك العبيد تستنكف أن تؤدي أعمالها بنفسها))^(٢).

وتنوعت خدمة العبيد بين الخدمات المنزلية والزراعية والصناعية والتجارة بالإضافة إلى الجندي لذلك كان لهم إسهام كبير في تنمية وارجلان وحضارتها.

ومع أن اليهود والنصارى لهم تأثير في مجتمعات المغرب وطبقاتها إلا أن "وارجلان" ليس لها حظ من أهل الذمة لأن مجتمع وارجلان لا يقبل إلا ما يتناسب مع ظرفه فنراهم يبنون بني هلال وسليم ويرحبون ببني معقل مع أن

(١) الإباضية بالجريد ، ت/ صالح باجيح ص ٩٣ ط. دار بو سلامه — تونس — سنة ١٩٧٦م.

(٢) النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ت/ عز الدين موسى ص ١١٨ ط. دار الشروق القاهرة سنة ١٩٨٣م.

المحاليين مكثوا فترة ليست بقصيرة في وارجلان إلا أن هذه الفترة لا تعني توطينهم هذه البلاد لعدم قبول أهلها لهم.

وهنا نقول : إن " وارجلان " أرض خصبة ترحب بما يتفق ومصالحها ويحافظ على أمنها ، وتلفظ كل دخيل يعطل مسار حضارتها ويعمد إلى إخلال أمنها ، واليهود مع خيرتهم التجارية ودرايتهم الاقتصادية لم يجلبوا سوى الدمار الاقتصادي للمجتمعات المسلمة في المغرب لتعسفهم في جباية الضرائب وسيطرتهم الاقتصادية ونشرهم مبادئ الربا مما جعل أهل " وارجلان " يلفظون هذه الطبقة مع تواجدها في بعض المجتمعات الإباضية سواء القريب منها في وادي ميزاب أو البعيد مثل جبل نفوسة.

هذه هي طبقات المجتمع الوارجلاني والتي شكلت عناصره وساعدت المبادئ الاجتماعية على بلورة سلوك مجتمع " وارجلان " هذه المبادئ التي سنتعرف عليها في الصفحات القادمة.

المطلب الثاني: المبادئ الاجتماعية للمذهب الإباضي وأثرها في مجتمع " وارجلان "

كما يضم المذهب الإباضي بين دفتيه المبادئ السياسية نجده يشتمل على الأسس الاجتماعية المستنبطة من الكتاب العظيم والسنة المطهرة ، والتي سارت عليها مجتمعات الإباضية فحققت رخاء اجتماعيا فريدا من نوعه وأبرزت للعالم حضارة ضاربة جذورها في أعماق الزمن شكلت إرثا حضاريا تناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل ، ومن هذه المبادئ الاجتماعية :

أ) علاقة الدولة الإباضية مع مواطنيها من غير المذهب :

إن علاقة الدولة الإباضية مع مواطنيها سواء من المذهب أو غيره تجري على نسق واحد لا تفضيل ولا تفاضل إلا بالتقوى كما صرح الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة ، ولذلك نجد أن هذه العلاقة مستمدة من الدستورين العظيمين لا تخرج عن نطاقهما ومن هذه المبادئ^(١):

- يسع عدل الدولة جميع من تظلمهم موافقين ومخالفين.
- لهم حقوقهم من الفء والغنائم والصدقات على وجوها.
- لهم على الدولة رفع الظلم عنهم كما يجب لسائر المسلمين وحماية النفس والمال والأهل.
- لهم أن يتولوا جميع المناصب والأعمال في الدولة حسب كفاءاتهم وموهلاتهم مثل غيرهم.

(١) هذه المبادئ نقلا عن الإباضية مذهب إسلامي معتدل ت/ الشيخ علي يحيى معمر ص ٣٤-٣٩ ط. مطابع النهضة سلطنة عمان - بتصرف.

— يختار منهم من يقضي بينهم ويقوم بواجب الحقوق عليهم ولهم ، ويسمع قوله في ذلك ما دام يجري على أسلوب القضاة كلهم.

ب) العلاقة بين الأفراد:

- حقوق الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والصاحب والجار — واجبة — أبرارا كانوا أم فجارا ، موافقين كانوا أم مخالفين.
- الأمانة يجب أداؤها إلى أصحابها موافقين أم مخالفين.
- الوفاء بالعهد واجب للجميع.
- من استجار وجبت إجارته موافقا كان أو مخالفا.
- الكاف عن القتال المعتزل بسيفه له عليهم حق الأمن وتوفير الحماية.
- النكاح والميراث والمساجد والإمامة في الصلاة والصلاة على موتى المسلمين وغسلهم وتكفينهم ودفنهم والذبائح والمقابر هذه لها حقوق ومرافق يشترك فيها جميع أهل القبلة دون نظر إلى مذاهبهم وإن اختلفت في الفروع.
- من حل دمه من المسلمين — سواء كان بحد أو ببغي أو بفتنة — لا يحل غنيمة ماله ولا سبي نسائه وقتل أطفاله ، ولا قطع الميراث عنه.
- لا يحل الفتك بالمخالف ولا يجوز اغتيال الخصوم ولا يحل لأحد قذف أحد من أهل القبلة وهو يعلم براءته.
- الولاية (وهي الحب في الله) حق لكل مؤمن موف بدين الله ، البراءة (وهي البغض في الله) واجب على كل مؤمن إزاء كل عدو لله من مشرك أو كافر أو مصر على المعصية.

— الأحوال الشخصية من نكاح وطلاق وحضانة ونفقة تجري بينهم وبين مخالفيهم حسب الأصول الفقهية المعروفة ومقتضيات العرف فيما يرجع فيه إلى العرف.

هذه بعض مبادئ المذهب الاجتماعية والتي نجدها تطبيقاً عملياً بوارجلان وتعدد مظاهرها وتكثر صورها في هذا المجتمع ، وكتب السير الإباضية تنقل مشاهد عدة ففي مجال التكافل الاجتماعي يسارع أغنياء وارجلان عندما تشتد النوازل بأهلها ببذل المال وإطعام المعوزين كما فعل أبو صالح جنون بن بمرين حتى نفذ ما في بيته من تمر^(١) كما تميز هذا المجتمع الوارجلاني ((بدعوة أهل القرى المجاورة لحضور الجنائز ومواساة أهل الفقيد))^(٢) . وهي من السمات البارزة التي اتسم بها مجتمعهم فلم نجدها في المجتمعات الأخرى سوى المجتمعات الإباضية المثلثة وإذا وقعت خصومة بين أفراد أو قبائل أو أسر نجد أهل الخير منهم يسارعون لحل هذه الخصومات وإطفاء نار الفتنة.

بل إن هذه المبادئ الاجتماعية نجدها تمثل واقعا حيا في شخصية ((العزابة)) ودورهم الاجتماعي والذي نتناوله في الصفحات القادمة.

هذه المبادئ الاجتماعية نجدها تمثل واقعا حيا في شخصية ((العزابة)) ودورهم الاجتماعي والذي نتناوله في الصفحات القادمة.

(١) أبو صالح جنون بن بمرين عده الدرجيني ضمن الطبقة السابعة (٣٠٠-٣٥٠هـ) عالم صالح كريم وكان من وجهاء وارجلان وأغنياءها له مآثر كثيرة تناقلت كتب الطبقات ، انظر (طبقات الدرجيني ص ٣٤١ ، سير الشماخي ٤٥).

(٢) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٥٥.

المطلب الثالث : حلقة العزابة ودورها الاجتماعي بوارجلان :

لعبت العزابة دورا كبيرا في مناحي الحياة المختلفة بوارجلان خلال هذه الحقبة إلا أن تأثيرها الاجتماعي كان بارزا وعظيما وقبل الحديث عن الدور الاجتماعي للعزابة لابد لنا من توضيح مفهوم العزابة وأقسامها ومهامها.

مفهوم العزابة :

العزابة : جمع عزابي ، ومدلول عزب كما وضحها الشيخ أبو عمار عبد الكافي أصل اشتقاقها من العزبة والعزلة والغربة والتهجد على رؤوس الجبال^(١) . وهذا الاشتقاق يقود إلى المفهوم الاصطلاحي : حيث إن العزابة في اصطلاح إباضية المغرب هي هيئة محدودة العدد تبلغ اثني عشر شخصا ونيفا على حسب مقتضى البلدة يمثلون خيرة أهل البلد علما وصلاحا، عزبوا عن الدنيا ومظاهرها البراقة وملذاتها، وانصرفوا لخدمة المذهب الإباضي ومجتمعه ، والدعوة إلى الصلاح ، وتوجيه الناس وإرشادهم إلى الدين^(٢) .

أقسام العزابة :

تتكون هيئة العزابة من الشيخ رئيس الهيئة الذي يتولى الإشراف على الهيئة وأعضائها وتجتمع في الشيخ كل السلطات إلا أنه لا يمارس النفوذ المطلق ولا

(١) مسير أبي عمار تحقيق مسعود مزهودي ص ١٣ ط. مكتبة الضامري للنشر والتوزيع سلطنة عمان سنة ١٩٩٦م.

(٢) نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي ميزاب ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي الوسيط ت/ اسماوي صالح بن عمر جامعة الجزائر - معهد التاريخ سنة ١٩٨٧م ص ١٣ بتصرف.

يستبد برأيه بحيث لا يبرم أمرا ولا يبت في قضية إلا بعد استشارة أهل الحل والعقد^(١).

ويقع تحت سلطة الشيخ إمام الصلاة والموذن ووكيلا المسجد ومقرئو المحاضر وعددهم ثلاثة ومغسلوا الموتى وعددهم أربعة وقاضي البلد^(٢) وهم هيئة العزابة.

نشأة العزابة :

نشأت العزابة على يد أبي عبدالله محمد بن بكر الفرستائي النفوسي^(٣) في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وكانت النشأة في أريغ بغار تنيسلي^(٤). «ولكنه غما وترعرع في وارجلان ونواحيها»^(٥) لأن مؤسس الحلقة خاض تجربة فريدة لتطبيق نظام العزابة فأخذ ينتقل من بلد إلى بلد حتى استقر فترة بوارجلان وشهدت وارجلان في عصره نظاما إصلاحيا فريدا.

(١) سيد أبي عمار ص ١٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٨.

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرستائي النفوسي ولد بمدينة فرسطاء بجبل نفوسه سنة ٣٤٥هـ سافر إلى جربه لتلقي العلوم من مشايخها وخاصة أبا زكريا فصيل بن أبي حمور ثم انتقل إلى القيروان فتعلم فيها العلوم العربية النحو والبلاغة والفنون واتصل بالشيخ أبي عمران موسى بن زكريا المزاتي وأبي نوح سعيد بن زنفيل أسس الحلقة في مسجد المنية سنة ٤٠٨هـ بنقييوس ثم انتقل إلى وادي ريغ ثم تنيسلي في غار أجلو ثم إلى وارجلان ثم إلى سدراته ومنها إلى ميزاب توفي سنة ٤٤٠هـ ودفن في مقبرة قريبة من الغار الذي كان يدرس فيه بأجلوا . انظر نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي ميزاب ص ٣٥-٤٩ ت/ اسماعيل صالح عمر سنة ١٩٨٧م رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، سير الشماخي ص ٣٩٢ وطبقات الدرجيني ص ٣٧٧ ج ٢.

(٤) يقع غار تنيسلي قرب بلدة أعر على بعد ٢٥ كم من مدينة تعزت بالجنوب الجزائري أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٣٩.

(٥) المصدر السابق ص ٣٩.

وبالرغم من أن بعض الباحثين يرى أن نشأة الحلقة سياسي لحماية المجتمع الإباضي من شر الفتن والحروب عند تأسيسه^(١) إلا أن التسلسل التاريخي يؤكد أن البداية كانت بقصد اجتماعي علمي مراعاة للظروف الاجتماعية وما آل إليه الإباضية من انحطاط «ويؤكد ذلك اهتمام الشيوخ بالتنقلات وتبادل الزيارات والارتباط بجماعاتهم والتشاور في تنظيم مصيرها للمحافظة على الكيان الإباضي في تلك الفترة التي سبقت نشأة هذا النظام»^(٢).

كما أن وجود هذا النظام في المجتمع الإباضي ليس بمستغرب لأن البربر قديما قبل تحضرهم لم يكونوا أمراء ولا ملوكاً تخضع لهم الجهات وإنما كل قرية تحكم نفسها وكل قبيلة تدبر شؤونها لا ترضى أن يتدخل في أمورها غيرها وهكذا كان نظام العزابة . ينفرد بتولي أمور الجماعة في كل بلدة على حده وتتعدد العزابة بتعدد الأقطار ، وفي أحلك الظروف لا يرضى أهل البلد أن يتولى شؤونهم غير عزابتهم حتى لو كان ذلك الدخيل هو الدولة الحاكمة كما ظهر ذلك في تاريخ إباضية المغرب.

عمل العزابة :

تتعدد مهام العزابة فتشمل كافة مناحي الحياة (السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية والاقتصادية) إلا أن دور العزابة في المناحي الاجتماعية والدينية والعلمية أكبر منها في النواحي السياسية والاقتصادية وتعتبر في زمن الظهور والدفاع مجلس الشورى للإمام أو عامله أما في زماني الشراء والكتمان «فهني تمثل

(١) نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي ميزاب لسماعيل صالح عمر ص ١٦ بتصرف.

(٢) انظر : أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ص ٤٠.

الإمام وت مارس كل صلاحيات الإمامة باستثناء إقامة الحدود التي هي من اختصاص إمام الظهور»^(١).

ولذلك يقول الشيخ أبو عمار — رحمه الله — : «متزلة أهل الحلقة الصافية بمنزلة السلطان العادل في العدل سواء»^(٢). وعلى هذا فإن سلطة العزابة روحية تقوم مقام الإمامة باعتبارها تطورا تاريخيا لرعاية المجتمع وصيانه.

شروط العزابي :

يشترط في العزابي أن يكون مخلصا لله في العمل ومستعدا للتضحية في كل الظروف ومتحملا بفضائل الأخلاق وذلك بإزالة عوائق القلب وعواقبه وتطهير البدن من الأنجاس وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو عمار رَحِمَهُ اللهُ : «اعلم أنه لا يدخل أحد الحلقة حتى تكون فيه أربع خصال :

الأولى : أن يكون كَيِّساً أديباً.

والثانية : أن يكون مشمرا في طلب العلم.

والثالثة : لا يكثر من دخول الأسواق.

والرابعة : أن يغسل جسده بالماء ويغسل قلبه بماء وسدر»^(٣).

وارجلان في ظل العزابة :

تبلورت وظائف العزابة الاجتماعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولاية والبراءة والتركيز على التربية الخلقية والتركيب الروحية في أواسط مجتمع وارجلان ، كما تقوم بالإصلاح بين الناس «والأسفار فيهم والتراسل في أهل

(١) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٣٨.

(٢) سير أبي عمار ص ١٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٣.

الخير ليجمعوا على أهل الفتنة وطلب أهل المناكر وطردهم وإخراج الريات والحرام من البلدان وطردهم حتى يخرجوا من عمران البلاد»^(١).

ولقد ظلت وارجلان محافظة على استقلالها مكتفية بنظام العزابة في نواحيها الاجتماعية منذ أن جاء أبو عبدالله مؤسس الحلقة إليها مع تلامذته «ووضع قواعد هذا النظام ومبسله بوارجلان واختار مسؤولا وممثلا لكل قبيلة يقوم برعايتها ويحرص عليها اتقاء لما عسى أن يحدثوه»^(٢).

كما اعتبر المسجد هو المركز الإداري للعزابة من خلاله يصدرون تعاليمهم وفيه يحاكمون المقصرين ويردون الحقوق إلى أصحابها ولذلك «عندما ارتبط نظام الحلقة بالمسجد فقد قاوم عوامل التذويب والفناء وتكيف مع الحياة وتطورها»^(٣).

ولقد نهج العزابة منهجا فريدا في إصلاح المجتمع ، فمبدأ الولاية والبراءة كان السيف الرادع للانحلال الاجتماعي وهو منهج النبي ﷺ عندما أمر صحابته بمقاطعة الثلاثة الذين تخلفوا عن أحد الغزوات لا لعذر فإنزل الله فيهم قرآنا بعد توبتهم «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »^(٤).

(١) سير الوسياني لأبي الربيع سليمان الوسياني مخطوط ص ٢٤٦.

(٢) نظام العزابة ودوره في الحياة الثقافية والاجتماعية بوادي ميزاب ص ٣٥.

(٣) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٤١.

(٤) سورة التوبة الآية : ١١٧-١١٨.

واستمر الإباضية على هذا المنهج بوارجلان وفي عهد أبي عمار عبد الكافي كان الإباضية يتبرؤون البراءة الشخصية فقد أورد في سير حلقة العزابة ((أن من فعل كبيرة من أهل الحلقة وظهرت عليه بالبيئة العادلة فإن العزابة يبرءون منه في الحين ويخرجونه من ديوانهم ومن حلقتهم إذا كانت كبيرة واضحة من الأقوال والأفعال ؛ فيحكمون فيه حكمهم ولا يخافون في الله لومة لائم))^(١).
فالبراءة عندهم غير مقصورة على عامة الناس بل تلحق خاصتهم حتى لو كان العزابة أنفسهم.

وتمتد هذه البراءة لتشمل كافة مناحي الاختلاط من عدم المؤاكلة والمشاركة والنبد للأسرى حتى تتوفر الضغوط النفسية التي تجعل المذنب يؤوب إلى الحق.

وكتب سير الإباضية مملوءة بالقصص التي تتحدث عن مبدأ الولاية والبراءة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن مهام العزابة الاجتماعية الإشراف على المناسبات الاجتماعية من أفراح وأتراح وزيارات وعيادات ، والإشراف على المرافق العامة ومراقبة الأسواق وغيرها ((وهو ما يجعل المجلس يتابع عن كتب ما يحدث من تغيرات ويرعى خطوات الجماعات والأفراد حتى لا تحرفهم تيارات المدنية الوافدة وحتى لا ينحرفوا عن أصالتهم وقيمهم ونظمهم))^(٢).

ليس هذا فحسب بل يقوم أعضاء العزابة بمساعدة مجالس العشائر على جمع الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء ومستحقها ((وقد يتدخل أهل

العزابة في البحث عن عمل شريف لاحتاج أو يتيم أو عاطل كما يسعى لحفظ كرامة ذوي العاهات والأرامل والمرضى والمحتاجين))^(١).
كما تقوم العزابة بالقضاء بين الناس والفصل في الأحكام ورد المظالم إلى أهلها.

((فالمصادر تذكر أنه كان في وارجلان موضع يعرف بـ [منبر وارجلان] يجتمع فيه القضاة من العزابة بحضور الناس ويحكمون على الجناة))^(٢).
ولذلك فإن الأمن الاجتماعي بوارجلان في ظل العزابة فتح الباب على مصراعيه لمناشط الحياة الأخرى في الحياة العلمية والتي سنتعرف عليها في الوريقات التالية.

هذه نظرة سريعة حول الدور الاجتماعي لحلقة العزابة والذي أثبت فاعليته حتى وقتنا هذا بل كانت حلقة العزابة وهيئتها تعزل المجتمع الإباضي عن مخالطة المدنية في عصر الاستعمار الفرنسي الحديث بالجزائر ، وتمنع دخول الأجانب إلى قرى الإباضية وتعقد الصلح مع المستعمر مقابل أن لا تؤلب عليه أحداً إلا أن تكون ثورة عامة في البلاد بأسرها للتخلص من هذا الاستعمار ولا تؤوى مجرماً أو خارجاً عن طاعته ، واستطاع مجتمع ميزاب ووارجلان أن يحافظ على كيانه في ظل الاستعمار ، ومن قبل في ظل الفتن العمياء والحروب الطاحنة في القرن السادس الهجري.

^(١) حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي ت.د/ محمد صالح ناصر ص ٢٨.

^(٢) الإباضية في المغرب الأوسط ت/ مسعود مزهودي ص ٢١٧ ط. جمعية التراث - القرارة - الجزائر سنة ١٩٩٦م.

^(١) سير أبي عمار ص ١٤.
^(٢) حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي ت.د/ محمد صالح ناصر ص ٢٤ ط. مكتبة الضامري للنشر والتوزيع سلطنة عمان سنة ١٩٨٩م.

المبحث الثالث

الناحية العلمية

— المطلب الأول : عصر الدويلات وأثره على الناحية العلمية

بوارجلان .

— المطلب الثاني : المدرسة الجدلية الإباضية وأثرها العلمي

بوارجلان .

— المطلب الثالث : الصلات الثقافية بين إباضية المشرق

والمغرب وأثره العلمي على وارجلان .

— المطلب الرابع : مظاهر الحركة العلمية ونتائجها .

المطلب الأول: عصر الدويلات وأثره على الناحية العلمية بوارجلان

شهد الشمال الإفريقي عصراً تعددت فيه الدويلات وتعاقت فيه الإمارات امتد من عام ١٦٠هـ بظهور الدولة الرستمية وحتى ما بعد عام ٥١٦هـ وهو العام الذي ولدت فيه الدولة الموحدية ، وبالرغم من كثرة الدويلات إلا أن الحركة العلمية لم تزدهر بوارجلان إلا في ظل دولتين هما الرستمية والموحدية مع أننا لا نغفل عن دور الدولة المرابطية حيث كان لها فضل في انتشار الإسلام في القارة الأفريقية وانتشار المذهب المالكي في المغرب العربي إلا أن وارجلان لم تتأثر علمياً في ظل هذه الدولة وبقيت تحافظ على تراثها العلمي الذي خلفته لها الدولة الرستمية حتى قيام دولة الموحدين.

الدولة الرستمية^(١) :

أسسها الإمام عبد الرحمن بن رستم عام ١٦٠هـ واستمرت قرابة ١٥٠ سنة وهي دولة دينية تتمسك بالمذهب الإباضي واستمدت تعاليمها من مصدرين الدين : القرآن والسنة مما جعلها تبني حضارة شملت كافة مناحي الحياة ، وظل الشمال الإفريقي يتنسم عبقها حتى وقتنا هذا.

فقد استطاعت الدولة الرستمية أن تثري الحركة العلمية بفضل روح التسامح والعدل والمساواة والتي كانت من أهم مبادئها ، فكفلت لكل من تظله حرية الفكر والاعتقاد في نطاق الدين والشريعة الإسلامية الغراء وهي دائرة واسعة تتيح من حرية الفكر والكلام كل ما تريده العقول الناضجة والنفوس الصحيحة ((وكانت

(١) سبق الحديث عن هذه الدولة انظر المدخل ص ٢١ وما بعد.

العامة والخاصة تعبر عن رأيها وعقيدتها في حرية تامة لا كبت ولا إرغام»^(١).

ولقد امتلأت تاهرت عاصمة الدولة الرستمية بالمذاهب المختلفة وفتحت أبوابها لهم وكانوا يجدون فيها حرية عرض مذاهبهم والدعوة إليها والاحتجاج لها ((بل تصل درجة الحرية أن يناظر أحد علماء المذاهب المخالفة إمام الدولة فيحير الإمام ولا يجد جوابا . فيستنجد بأحد علماء جبل نفوسة لإنقاذ الموقف دون أن يستخدم السيف لقمع العالم المناظر وإنهاء مناظرته))^(٢).

كما احتضنت الدولة الرستمية أهل الذمة (اليهود والنصارى) ((وكان فيها العجم والعرب والسودانيون والأوروبيون من صقلية وإيطاليا والأندلس والجزر الأخرى القريبة من المغرب وكانوا يتوافدون عليها للتجارة أو للعمل أو للإقامة))^(٣).

كما عني الرستميون بجانب ذلك بنشر التعليم في كافة أنحاء دولتهم وعلى مختلف مراحل الابتدائي والمتوسط والكبار وعلى مختلف الأنواع والأجناس الذكور والإناث ومختلف الطبقات حتى العبيد والإماء.

وكان الأئمة الرستميون بيت علم ودين كلهم من العلماء الفحول لأن الدولة الرستمية لا تقبل لإمامتها إلا العلماء العاملين ولذلك نجد أن للأئمة الرستميين تأليف، فبعد الرحمن بن رستم له تفسير ذكرته السير الإباضية إلا أننا لم نقف عليه ولربما أحرقه العبيديون مع جملة ما أحرقوه من مكتبة المعصومة في تاهرت وللإمام

^(١) تاريخ المغرب الكبير ت/ محمد علي دبوز الجزء الثالث ص ٣٢٨.

^(٢) وذلك حين استنجد الإمام عبد الوهاب ثاني الأئمة الرستميين بالشيخ مهدي النفوسي - وكان فارس المناظرة الذي أفحم علماء تاهرت لمناظرته أحد علماء المعتزلة عندما عجز العلماء في تاهرت عن مناظرته . انظر : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ت/ محمد علي دبوز ص ٣٣٠.

^(٣) تاريخ المغرب الكبير ت/ محمد علي دبوز ص ٣٣٢ الجزء الثالث.

عبد الوهاب كتاب ((نوازل نفوسه)) وهي مجموعة الفتاوى الشرعية التي كان علماء نفوسه يستفتونه فيها ، كما ترك الإمام أفلح بن عبد الوهاب مراسلات مهمة دلت على سعة علمه ، وقصائد دلت على أدبه ومنها قصيدة في الحث على العلم عنوانها ((تحريض الطالب)) يقول في مطلعها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
يريك أشخاصهم روحا وإبكارا
وهي في أربع وأربعين بيتا^(١).

في هذه الفترة الخصبة كانت وارجلان من عواصم العلم في المغرب ومن معادن الثروة والغنى والحضارة في المغرب الأوسط وبعد زوال الدولة الرستمية ورثت وارجلان هذه الحضارة . وأنشأت بفضل غناها وعلمها وحضارتها إمارة سدراته ((وانتقل إليها الإمام يعقوب بن أفلح هربا من العبيدين ومعه ما تبقى من كنوز مكتبة المعصومة))^(٢) ولذلك سميت عاصمة الإباضية الثانية، وانتقل إليها طلاب العلم والعلماء ، وبقيت كذلك حتى مجيء الدولة الموحدية.

الدولة الموحدية :

أسسها المهدي بن تومرت^(٣) سنة ٥١٦ هـ وهي دولة دينية إصلاحية قامت في عهد الدولة المرابطية واستطاعت التغلب عليها وتدين هذه الدولة بالمذهب

^(١) المصدر السابق نفسه ص ٣٧٩.

^(٢) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت/ مصطفى باجو ص ٦٤ بتصرف.

^(٣) هو محمد المهدي بن تومرت المغربي السوسي وابن تومرت ولد في الثالث الأخير من القرن الخامس الهجري واختلف المؤرخون في تحديد سنة ميلاده ولد ببلدة إيجلى في شمال الأطلس الصغير درس بالأندلس ورحل إلى المشرق فمكث خمسة عشر عاما انتقل بين الإسكندرية وبغداد ثم رجع إلى القاهرة أسس دولته سنة ٥١٦ هـ ومات سنة ٥٢٤ هـ متأثرا بجروحه بعد معاركه مع مسكوره في آزليم . انظر الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي ت/ عبد الله علام ط. دار المعارف القاهرة سنة ١٩١١ ص ٤٣ وما بعدها..

الأشعري إلا أنها تخالفه في تأويل المتشابه فهي تنهج نهج المعتزلة في هذا الجانب كما تنهج نهج الشيعة في القول بالمهدي المنتظر والإمام المعصوم فابن تومرت يرى أنه هو المهدي المعصوم الذي جاء ليملا الأرض عدلا بعد الفساد العقدي والضعف العلمي الذي شهدته المغرب في العهد المرابطي حيث منع المرابطون تدريس بعض العلوم الإسلامية كعلم الكلام والفلسفة فكانوا يعدون الدراسات الكلامية طريقا إلى الكفر وقرر الفقهاء في عهد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين^(١) تقبيح علم الكلام وكرهية السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين^(٢).

ولم يكتفِ المرابطون بذلك بل عمدوا إلى إحراق كتب علم الكلام كإحياء علوم الدين للإمام الغزالي لاشتماله على كثير من مسائل الفلسفة الكلامية^(٣).

وأمام هذا الجحود الفكري أعلن المهدي بن تومرت قيام دولته الموحدية وسماها بهذا الاسم لكي يخالف منهج الدولة المرابطية من جهة ولأنه يعتبر أن التوحيد هو أساس الدين الذي بني عليه ((وأن فروعه إنما تثبت بعد العلم بثبوته))^(٤) من جهة أخرى.

كما سمي أتباعه بالموحدين ((أي الذين يوحدون الله توحيدا مطلقا لا تشوبه

^(١) هو ثالث سلاطين المرابطين الذين أسسوا دولتهم بمراكش واستطاعت دولة المرابطين أن تتغلب على النصراني في الأندلس في معركة الزلاقة الشهيرة كما يعود لهم الفضل في انتشار المذهب المالكي في أنحاء المغرب العربي انتهت هذه الدولة في عهد عبد المؤمن بن علي حيث قضى على من بقي منهم سنة ٥٤١هـ.

^(٢) الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي ت.د/ عبد الله علام ص ٥٢.

^(٣) المصدر نفسه ص ٥٢.

^(٤) أعز ما يطلب ت/ المهدي بن تومرت ص ٢٧١ نقلا عن تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية ت.د/ يحيى هويدي ص ٢٦١.

شائبة التجسيم))^(١) ولقبهم أيضا بالطلبة.

أنشأ ابن تومرت هيئات تعينه في الحكم وهي بمثابة مجلس للشورى مثل هيئة العشرة وهيئة الخمسين وهيئة السبعين وهكذا على حسب الأسبقية في الولاء لهذه الدولة.

كما اهتم ابن تومرت بنشر عقيدته التوحيدية باللغة العربية وتارة بالبربرية وألف في ذلك كتباً ترجمت إلى العربية والبربرية.

أنشأ ابن تومرت رابطة للعبادة لكي تكون مقراً للتدريس ومركزاً لتدبير أمور الدعوة.

وفي عهد عبد المؤمن بن علي^(٢) انتشر التعليم في كافة أرجاء الدولة الموحدية وكفل لجميع طبقات شعبه حرية الفكر فكان للمالكية مناهجهم التي لم تنطفئ شعلتها في الكتاتيب والمساجد والزوايا والرباطات^(٣)، كما شهدت تاهرت العاصمة الإباضية القديمة حركة علمية فنشر فيها عبد المؤمن مبادئ الموحدين، ونشط فيها تحفيظ القرآن الكريم^(٤).

وفي عهده ازدهرت الدولة الموحدية بالعلماء في مختلف العلوم العقلية والعقلية كالقراءات والتفسير والحديث والفقه وكان لعلم الكلام النصيب الوافر في هذه الدولة لأنها انبنت عليه وقامت على أساسه.

^(١) الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي ت.د/ عبد الله علام ص ٦٣.

^(٢) هو الذي خلف المهدي بن تومرت في شئون الحكم (من ٥٢٤هـ وحتى ٥٥٨هـ) واستطاع أن يتغلب على المرابطين كما دانت له معظم بلاد المغرب الأوسط والأقصى. انظر الدولة الموحدية ت.د/ علام ص ٨٢ وما بعدها.

^(٣) المصدر السابق ص ٢٨٦.

^(٤) المصدر السابق نفسه ص ٢٨٦.

كما اهتم الموحدون بالفلسفة الإسلامية إهتماما بالغاً على عكس المرابطين إلا أن الفلسفة اليونانية لم تكن ذات بال عند ابن تومرت وعبد المؤمن ، وإنما نموها وازدهارها كان في عهد يوسف بن عبد المؤمن الذي خلف والده على عرش الدولة الموحدية سنة ٥٥٨هـ ، فجمع إليه صفوة الفلاسفة مثل أبي بكر بن الطفيل صاحب رسالة "حي بن يقظان" والفيلسوف ابن رشد^(١) ، كما ظهر في هذه الدولة الفيلسوف المتصوف محيي الدين بن عربي^(٢) .

فلا غرو أن تناصر "وارجلان" هذه الدولة ، وأن تنضوي تحت لوائها وأن يسهم علماؤها في إثراء الحركة العلمية في عصرها ، وأن يظهر مستشارون في بلاطها مثل أبي يحيى زكريا اليراسني^(٣) الذي كان مؤدباً ليعقوب المنصور الخليفة الموحدي وهو أول خليفة ينقد مبادئ المهدوية ويعلن عدم اعترافه بالعصمة والإمامة^(٤) وهذا يدل دلالة واضحة على تأثير يعقوب بفكر شيخه أبي يحيى زكريا اليراسني الإباضي وسار على منواله ابنه المأمون الذي صعد المنبر ، وأعلن على الملأ إلغاء أسطورة المهدوية ومحو عبارات التنويه بالمهدي المنتظر من الخطبة

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ولد بمدينة قرطبة وتعلم بها ، وابن رشد ينتسب إلى بيت عريق في العلم والأدب ، وقد أكتب على تعلم الفلسفة والطب وعرف فيلسوفاً أكثر منه طبيباً ، والتحق بخدمة الأمير يوسف ابن عبد المؤمن ثم ابنه يعقوب المنصور توفي سنة ٥٩٥هـ . انظر الأعلام للزركلي مج ٥ ص ٣١٦ ط. دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٩٥م.

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن عربي الطائي الحاتمي ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ وتلقى العلم على أستاذه وعبر إلى المغرب ونزل بجاية وأخذ عن أستاذه ثم ارتحل إلى المشرق حاجاً ولم يعد إلى وطنه فسمع بمكة وبغداد ودمشق وتبحر في الحديث ومال إلى التصوف حتى بلغ فيه الغاية ولقد كانت له آراء أنكرها علماء الأثر حينئذ ورموه بالزندقة والإلحاد وطالبوا بإعدامه . انظر الأعلام للزركلي مج ٦ ص ٢٨١.

(٣) كان الشيخ أبو يحيى اليراسني مؤدباً للخليفة يعقوب المنصور ووزيراً لوالده يوسف بن عبد المؤمن . انظر : طبقات الدرجيني ص ٥٠٤.

(٤) الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي ت. د/ عبد الله علام ص ٢٣٣.

لذلك فليس بمستغرب أن يساوي المؤرخون الإباضية الدولة الموحدية بالدولة الرستمية الإباضية في سيرهم^(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه تجاهل الباحثين المعاصرين من الإباضية وسكوهم عن الحديث عن دور هذه الدولة في تنشيط الحركة العلمية ببلاد المغرب عامة ومناطق الإباضية خاصة ، مع أننا لو ربطنا بين تأليف الإباضية في فترة الدولة الموحدية وبين المبادئ التي نادى بها الموحدون ودعوا إليها لوجدنا تقارباً كبيراً وتأثراً عظيماً انعكس على صبغة التأليف لدى الإباضية في هذه الفترة وما بعدها باستثناء مهدية ابن تومرت وعصمته ، وهو ما نلاحظه في تأليف أبي عمار التي جاءت جلها في علم الكلام والتي ستنطرق إليها في الحديث عن شخصيته بعد عدة صفحات قادمة إن شاء الله.

(١) انظر : ص ٤٢ من هذا البحث.

المطلب الثاني: المدرسة الجدلية الإباضية وأثرها العلمي بوارجلان

لقد كان للمدرسة الجدلية عند الإباضية دور كبير في إثراء الحركة العلمية "بوارجلان" - عاصمة الإباضية الثانية بعد تاهرت - حيث أسهمت هذه المدرسة في مناقشة القضايا العقدية والفقهية التي كانت محور خلاف بين المذاهب الإسلامية كما أسهمت هذه المدرسة في نشر الفكر الإباضي وصقل القدرات الجدلية عند الإباضية فظهرت مؤلفات لعلماء الإباضية في العقيدة كانت عمدة للأجيال من بعدهم كما ظهرت طبقة من المتكلمين أسهموا كذلك في إثراء الحركة العلمية بشمال أفريقيا عامة ووارجلان خاصة.

أما عن النشأة التاريخية للمدرسة الجدلية فإن جذورها تعود إلى القرن الأول الهجري إثر ظهور الفرق الإسلامية بعد الأحداث الدامية التي مرت بها الأمة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين سنة ٣٥هـ.

فلقد أفرزت هذه الأحداث قضايا عقدية وسياسية كبرى كالإمامة أو الخلافة وأحقية آل البيت أو قريش أو المسلمين الأكفاء عامة بها، ومرتكب الكبيرة هل هو خالد مخلد في النار أم في منزلة بين المنزلتين أم ينطبق عليه مبدأ الإرجاء ((لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة)).

ألقت هذه القضايا بظلالها على مجريات الأحداث في القرن الأول الهجري وسرعان ما تبنت كل فرقة من المسلمين رأيا في كل قضية أثرت تأثيرا سياسيا وفكريا ظلت توابعه إلى يومنا هذا.

هذه القضايا كانت سببا مباشرا لظهور المدرسة الجدلية التي نمت بظهور قضايا عقدية أخرى في مباحث العقيدة المختلفة، وتذكر المصادر الإباضية نماذج من المدرسة الجدلية الإباضية في النصف الثاني من القرن الأول الهجري خلدها

رسائل وردود مؤسس المذهب جابر بن زيد الأزدي وعبدالله بن إباح والتي قام بجمعها أبو غانم الخراساني^(١) في مدونته.

واشتمل عليها مسند الربيع بن حبيب^(٢) بروايات الإمام جابر بن زيد مما أعطى الانطباع الواضح عن الفكر العقدي الإباضي في القرن الأول الهجري ومن هذه النماذج ما ذكره الشماخي في سيره من أن جماعة الخوارج أرادوا جدال الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه في مسألة استحلال أموال المسلمين وسبى ذراريهم فقال لهم: ((أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين؟ فقالوا: نعم، فقال: وحرّم الله البراءة منهم بدين؟ فقالوا: نعم، فقال: وحرّم الله ولايتهم بدين بعد الأمر بما بدين؟ فقالوا: بلى، فقال: هل أحل ما بعد هذا بدين؟! فسكتوا))^(٣).

(١) هو أبو غانم بشر بن غانم الخراساني درس بالبصرة وأخذ عن تلاميذ أبي عبيدة وعنهم دون كتبه وأهمها المدونة التي دون فيها أقوال تلاميذ أبي عبيدة وقد رحل في أواخر القرن الثاني الهجري إلى تاهرت مارا بجبل نفوسة ورويت عنه المدونة في تاهرت ونسخت في جبل نفوسة على يد عمرو بن قسطل، ولولا نسخ عمرو لما بقي لها أثر: سير الوسياني الورقة الرابعة مخطوط بتصرف، والبعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت.د/ فرحات الجعيري ص ١٠٥ ط. مطبعة الألوان الحديثة سلطنة عمان سنة ١٩٨٩م.

(٢) هو الربيع بن حبيب بن عمرو الأزدي الفراهيدي العماني ولد بoudam من باطنة عمان والراجح أن ولادته سنة ٧هـ أدرك الإمام جابر وتلمذ على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وشيوخ عدة من إباضية البصرة ثم تولى أمانة الإباضية هنالك بعد وفاة أبي عبيدة جمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في مسنده رواية أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن جمع من الصحابة أبرزهم عبد الله بن عباس ومسنده يعتبر عمدة الإباضية في الحديث رتبته أبو يعقوب الوارجلاني في القرن السادس الهجري وشرحه أبو عبد الله محمد بن عمر المحشي في القرن الحادي عشر الهجري وسمى حاشيته الترتيب طبعة وزارة التراث بسلطنة عمان وشرحه الإمام نور الدين السالمي وطبع في ثلاثة أجزاء وغيرها في أربعة أجزاء بجهود خاصة أو طباعة وزارة التراث وسمى شرح مسند الربيع بن حبيب. انظر: البعد الحضاري ١٠٤، ١٠٥ ت/ الجعيري.

(٣) سير الشماخي ج ١ ص ٢ وهو من جملة ما نقل من مدونة ابن غانم الخراساني.

هذا النص يصور مرحلة من مراحل المدرسة الجدلوية حيث اهتم الإمام جابر ابن زيد بتأصيل مبادئ مذهبه وإزالة شوائب الخوارج عنه بعدما خط الخوارج لأنفسهم منهجاً مغايراً لجمهور المسلمين فأعملوا السيف في رقاب أهل القبلة مما جعل الإمام جابر يجادلهم في مبادئهم على نحو ما نقلت السير من نصوص ، ولم يقتصر الإمام جابر على الخوارج بل امتد دوره للرد على استفسارات العامة والخاصة فدل ذلك على العقلية الواسعة لدى هذا الإمام ((فقد وقع في نفس الحجاج^(١) شيء من القدر فشكا ذلك إلى كاتبه يزيد بن مسلم فبعث يزيد يسأل جابراً - وكان به معجباً وفيه وثاقا - فأجابه: قل للأمير يكثر من ترديد خطبته فإن فيها الجواب عما يسأل ، وردد الحجاج خطبته وأكثر فيها التفكير فانتبه إلى أن خطبته تشتمل على قوله - تَعَالَى - : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾^(٢) وفي الآية الكريمة الجواب على حيرة الحجاج فقال ليزيد: ويحك يا يزيد ما أعلم صاحبك^(٣) .

وبمجيء القرن الثاني الهجري أخذ الفكر الاعتزالي يتبلور بعدما أرسى دعائمه واصل بن عطاء^(٤) كما تبلورت في هذه الفترة أصولهم الخمسة ((التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، المتزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن

^(١) هو الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق وخراسان في عهد عبد الملك بن مروان ، خطيب بارع وسياسي صارم ، ولد ونشأ في الطائف ومات بواسط - الأعلام للزركلي مج ٢/١٦٨ ط. دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٩٥ م.

^(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧٨ .

^(٣) سير الشماخي ص ٧١ ج ١ .

^(٤) هو واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة ومن أئمة البلقاء والمتكلمين ، سمي أصحابه المعتزلة لاعتزاله مجلس الحسن البصري ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى الواصلية ولد بالمدينة ونشأ بالبصرة وكان يلتق بالبراء في خطابه له مؤلفات منها ((أصناف المرجئة ، المنزل بين المنزلتين ، معاني القرآن)) انظر الأعلام للزركلي الجزء الثامن ص ١٠٨-١٠٩ .

المنكر^(١) . وانتشر في هذه الفترة المذهب الاعتزالي انتشاراً واسعاً في المشرق والمغرب عبر دعائه كما انتشر المذهب الإباضي في شمال إفريقيا وتوسع على يد حملة العلم . وتذكر المصادر الإباضية لقاء تم بين واصل بن عطاء وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة ، فلقد كان واصل يتمنى لقاء أبي عبيدة ولما اجتمعا قال واصل لأبي عبيدة : أنت الذي تقول إن الله يعذب على القدر ؟ فقال أبو عبيدة : لا ولكني أقول : يعذب على المقدور ثم قال له : أنت الذي تزعم أن الله يعصى باستكراه ؟ فعجز واصل عن الجواب وسكت فقبل له بعد ذلك : سألته فتخلص وسألك فوقفت ؟ فقال : بنيت له بنيانا منذ ثلاثين سنة فهدمه وهو واقف^(٢) .

وامتد هذا الصراع المحموم في العقيدة إلى الشمال الإفريقي ليصل ذروته في النصف الثاني من هذا القرن ، وهي الفترة التي تأسست فيها أول دولة إباضية يكتب لها النجاح في تاهرت الرستمية ، وبالمقابل تأسست الدولة الأغلبية بالقيروان حيث نهجت هاتان الدولتان منهجاً واحداً في التسامح الديني ففتحت القيروان وتاهرت الأبواب على مصراعيها للمناظرات العقدية بين علماء المذاهب من الشيعة والمعتزلة والإباضية والخوارج ، وبالرغم من أن الدولة الأغلبية سنية المذهب إلا أنها أخذت بالمذهب الاعتزالي في بعض النواحي العقدية ((واختار بنو الأغلب أكثر قضائهم على مذهب أهل العراق))^(٣) .

وكان ذلك في عهد المأمون الخليفة العباسي الذي ذهب إلى القول بجُلِّي

^(١) البعد الحضاري ت/ الجعيري ص ١١٠ .

^(٢) مسلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين ت. الشيخ عبدالله الباروني حاشية (١) ص ٦ ط. مطبعة فانزى (تونس).

^(٣) ورقة عمل د/ محمود أحمد بكير بعنوان الصراع العقائدي في الفلسفة الإسلامية وهي ضمن دراسات ملتقى الإمام المازري للفلسفة الإسلامية المنعقدة بتونس من ١٢-١٤ نوفمبر سنة ١٩٧٥ م ص ٣١، ٣٢ ط. وزارة الشؤون الثقافية بتونس سنة ١٩٧٨ م.

القرآن موافقا المعتزلة والإباضية ، وألقت هذه القضية بظلالها على المدرسة الجدلوية في هذه الفترة فبلغ صدها المشرق والمغرب وانبرى علماء المذهب الإباضي يدافعون عن رأيهم وتسجل المصادر التاريخية رسالة للإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي في خلق القرآن يقول فيها : ((اجتمعت الأمة على أن القرآن كلام الله ولا يخلو هذا الكلام من أن يكون شيئا أو ليس بشيء يختلف فيه المخالفون وينازع فيه ولو صح أنه ليس بشيء لبطل أن تكون رسل الله جاءت بشيء ، وإن الله ﷻ أنزل على أنبيائه شيئا ... واجتمعت الأمة أيضا ألا يوجد - أي الكلام - إلا وثم متكلم ، وأن المتكلم قبل الكلام ، ولو لم يكن المتكلم قبل الكلام ولم يكن المتكلم أولا بأن يكون مكلفا من الكلام فيكون الكلام إذا هو المتكلم والمتكلم هو الكلام ... فلما لم يحجز أن يكون الكلام هو المكلم والمكلم هو الكلام ثبت أن هذا غير هذا ، وفي وجوب التغاير إثبات العدد وفي وجوب التقادم إثبات أن أحدهما قبل الآخر ، وفي إثبات أحدهما قبل الآخر إيجاب القدم للأول والحدوث للآخر ، وفي وجوب الحدوث للثاني إثبات أنه كان بعد إذ لم يكن وفي هذا إيجاب الخلق وإثبات وحدانية الصانع))^(١) .

وهذا النص يدل على تمكن الإباضية في المغرب الإسلامي من الجدل المنطقي الذي ورثته الفلسفة الإسلامية عن الفلسفة اليونانية التي بلغت دراستها الذروة في عهد المأمون العباسي فترجمت وقتنت في المشرق والمغرب مما كان له أثر بالغ في تطور الأسلوب الجدلي لدى الإباضية في القرون من الثالث إلى السادس الهجري.

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ظهر المذهب الأشعري على يد

(١) الإباضية بالجريد ت/ صالح باجيبي ص ٢١٣.

أبي الحسن الأشعري^(١) .

وبظهور هذا المذهب إكتملت صورة المذاهب الإسلامية وظهرت واضحة نقاط الالتقاء والافتراق مع الإباضية ، وبات من اللازم معرفة أوجه الاتفاق والاختلاف حتى نتعرف على صورة المدرسة الجدلية في هذه القرون الأربعة:- فالإباضية بالنسبة للأشاعرة (جمهور المتكلمين)^(٢) : يختلفون في الصفات الإلهية فيرى الأشاعرة أنها زائدة عن الذات بينما يرى الإباضية أنها عين الذات.

كما أنهم يختلفون في الرؤية : فيقول الأشاعرة : إن الله يُرى في الآخرة بينما الإباضية يقولون : إن الله لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة.

والقرآن عند الأشاعرة غير مخلوق وعند الإباضية مخلوق ، ومرتكب الكبيرة عند الإباضية كافر كُفِرَ نعمة خالده في النار بينما هو عند الأشاعرة مؤمن عاصٍ ويندرج تحتها الشفاعة لمرتكب الكبيرة بينما الإباضية يمنعون ذلك.

والإيمان عند الإباضية قول وتصديق وعمل ، والأشاعرة ترى أن الإيمان قول وتصديق وقيل : هو التصديق ، والقول معبر عنه.

أما الولاية والبراءة : فيرى الإباضية ولاية الأشخاص وبراءتهم واجبة مثل ولاية الجملة وبراءة الجملة ، بينما الأشاعرة لا يرون ولاية الأشخاص وبراءتهم ويكتفون بولاية الجملة وبراءة الجملة.

(١) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق مؤسس المذهب الأشعري كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ولد في البصرة وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بمخالفتهم توفي ببغداد ، قيل : بلغت مؤلفاته ثلاثمائة كتاب منها (مقالات الإسلاميين ، الإبانة عن أصول الديانة وغيرها) (الأعلام للزركلي ص ٢٦٣ ج ٤ ط. دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٩٥م).

(٢) نقاط الافتراق بين الإباضية والأشعرية من كتاب مختصر تاريخ الإباضية للشيخ أبي الربيع سليمان الباروني ص ٧٣ ط. مكتبة الضامري - سلطنة عمان بتصرف.

أما بالنسبة لباقي السمعيات كالميزان والصراط فيرى الإباضية بمعنويتهما بينما يرى الأشاعرة أنهما حسيان حقيقيان.

ويتفق الأشاعرة مع الإباضية في أن الفعل مخلوق لله والكسب من العبد.

أما بالنسبة بين الإباضية والمعتزلة فليس هناك تعارض كبير سوى مخالفة الإباضية في أفعال العباد التي يرى فيها المعتزلة ((أن أفعال العباد مخلوقة لهم وهي واقعة بقدرة العبد وحدها على سبيل الاستقلال))^(١) والمترلة بين المترلن وإن كان هنالك اختلاف آخر فهو لا يصل إلى حد الاختلاف الكبير بين الإباضية والأشاعرة.

ولذلك نجد أن هذه المبادئ العقيدة التي تفرق فيها الفرق الثلاث كانت ماثراً جديلاً في المغرب العربي ، والتي ألقت بدورها وظلالها على جو المناظرات في الشمال الأفريقي طيلة القرون الأربعة من الثالث وحتى نهاية السادس الهجري ، ومع أن الفكر الأشعري كان في بدايته منهجاً سلفياً خالصاً إلا أن الإمام الغزالي استطاع مع غيره من علماء المذهب أن يتجهوا بالمذهب إلى وجهة أخرى تبعد قليلاً أو كثيراً عن نهج شيخهم الأشعري.

ولقد تأثر بفكره الفلسفي علماء الإباضية فظهرت تلك النزعة الفلسفية في كتابات أبي عمار عبد الكافي وأبي يعقوب الوارجلاني في القرن السادس الهجري.

ولم تكن المناظرات مقصورة على المذاهب الثلاثة بل ظهرت في المذهب الإباضي انقسامات كانت بسبب آراء فقهية وعقدية بدأت منذ العهد الرسمي بطائفة تسمى (التُّكَّار) وسموا بهذا الاسم لأنكارهم إمامة عبد الوهاب بن

(١) ضوء جديد على شرح جوهر التوحيد ت/ أ.د. محمد رشاد عبد العزيز ص ٦٣ سنة ١٩٩٧م.

رستم وتزعم هذه الفرقة ((يزيد بن فندين))^(١)، وانضم إليه ((شعيب بن المعروف))^(٢) فلقد رأى ابن فندين وابن المعروف أن إمامة عبد الوهاب باطلة في اعتقادهم لوجود الأفضل منه كما أنه اشترط على عبد الوهاب أن يكون له مجلس شوري خاص لا يقضي في شيء من الأمر دون الرجوع إليه ولم يتم هذا الشرط^(٣) وتوسعت هذه الفرقة في مخالفتها إلى أن بلغت المسائل التي خالفوا فيها نيفا وعشرين مسألة وأما باقي الفرق التي خرجت عن الإباضية فهي كالتالي^(٤) :

(الحسينية) : زعيمها أبو زياد أحمد بن الحسين الأطرابلسي عاش في القرن الثالث الهجري ومقالاته تجتمع مع فرقه (العميرية) التي يرأسها ((عيسى بن عمير)) وتشكل هاتان الفرقتان وحدة واحدة ، وهذه الفرقة عشرة آراء من أخطرها:

(١) لا يشرك من أنكر ما سوى الله من نبي وكتاب ومعاد وجنة ونار.

(٢) المتأولون المخطئون من أفراق الأمة مشركون.

(١) ابن فندين كان أحد الثمانية الذين أوصى عبد الرحمن بن رستم قبل وفاته أن يتشاوروا في أمر الخلافة من بعده ويختاروا من بينهم إماماً لتاهرت وباع ابن فندين مع جملة من بايع إلا أنه اشترط على عبد الوهاب أن يستشيرهم دون مشورة الجماعة في أمور الحكم فرد عليه العلماء أنه لا يوجد شرط في الإمامة على هذا النحو فخرج عن الإمام وأنكر عليه إمامته بعد ما بايعه فسمى نكاريّاً وأصحابه النكار (سير الشماخي ج ١ ص ١٣٠).

(٢) هو شعيب بن معروف من تلاميذ الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة خالف الإمام في مسائل منها (صلاة الجمعة وراء أئمة الجور لا تجوز وأهل القبلة المتأولون بما يوهم التشبيه مشركون) إلا أن أبا عبيدة أئمنه بالحوال عن رأيه فالتفت ثم رجع بعد وفاته وشارك ابن فندين فتنقه (الإباضية مذهب إسلامي معتدل ت/ علي يحيى معمر ص ٤٠).

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤٣.

(٤) هذه الفرق ومبادئها مأخوذة عن الإباضية مذهب إسلامي معتدل ت/ علي يحيى معمر ص ٢٤ ورسالة في الفرق لأبي القاسم البرادي ص ٥٢ مع مجموعة رسائل للمؤلف نفسه ط. المطبعة البارونية بالجزيرة بمصر بتصرف.

(٣) وقالوا : يسع جهل معرفة النبي ﷺ وليس على الناس إلا معرفة المعبر عنه هكذا.

(٤) وقالوا : يسع فعل الحرام إلا ما للعقل عليه دليل والحرام الذي يسع فعله هو الذي يسع جهله.

(السكاكية) : ويرأسها عبد الله بن السكاك اللواتي^(١) ومن أشد مبادئها معارضة للإسلام : إنكار السنة والإجماع والقياس والقول بأن الأذان وصلاة الجمعة بدعة.

(النفائية) وزعيمها ((فرج بن نصر النفائي))^(٢) وأهم آراء هذه الفرقة : إنكار خطبة الجمعة ، وأن ابن الأخ الشقيق أولى من الأخ لأب في الميراث.

(الفرثية) : وزعيمها أبو سليمان بن يعقوب الرستمي^(٣) وأهم مبادئها الفقهية التي خالفت فيها الإباضية نجاسة عرق الجنب والحائض ، وهي فرقة نشأت بوارجلان ولها آراء فقهية أخرى وسموا بالفرثية لتنجيسهم فرث الحيوان المأكول لحمه وما طبخ فيه من طعام.

(١) هو عبدالله بن السكاك اللواتي كان أبوه رجلاً صالحاً فأسلمه مودب فحفظ القرآن وطلب العلم فنال منه فنونا واحترف الصياغة فجمع مالا جما فأغراه ذلك على طلب الظهور فخالف المسلمين في مسائل جعلتهم من زمرة المشركين . انظر : الإباضية مذهب إسلامي معتدل ت/ علي يحيى معمر ص ٤٤ .

(٢) كان فرج عالماً واسع الاطلاع وكان ذكياً حاد الذكاء عاش في زمن الإمام أفلح بن عبد الوهاب وكان يمتنى نفسه بإمارة جبل نفوسة إلا أن ظنه خاب فسخط على الإمام أفلح وللإمام رسائل وجهها إليه . انظر الإباضية مذهب إسلامي معتدل ص ٤٥ ، الأزهار الرياضية ت/ سليمان الباروني ص ١٦٦ .

(٣) هو أبو سليمان بن يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب الرستمي عالم واسع الاطلاع هرب مع والده إلى وارجلان بعد سقوط الدولة الرستمية ، ولقد حذر يعقوب من آراء ولده قبل وفاته وقال : إن ولده قرأ كتب المخالفين فلما توفي والده وجد إلى الفتوى سبيلاً فتصح وأفتى . انظر رسالة الفرق للبرادي ص ٦٠ ، والإباضية مذهب إسلامي معتدل ت/ علي يحيى معمر ص ٤٦ .

(الخلفية) : وزعيمها خلف بن السمع المعافري^(١) ولم يعرف لهذه الفرقة آراء سوى الانفصال عن الإمام العادل والخروج عن طاعته لأنهم يرون أن لكل حوزة إماماً لا يعدوها إلى غيرها وتجاوزوا القول إلى الفعل.

هذه مجمل الفرق التي شذت عن الإباضية الوهبية ولقد كانت لها مع الوهبية سجلات ومناظرات حول آرائها الشاذة ، ولعل أهم فرقة منها ناظرها الإباضية الوهبية هم النكار والمصادر التاريخية تضم صوراً من هذه المناظرات كالتي وقعت بين أبي نوح سعيد بن زنگيل (الوهبي)^(٢) وأبي يحيى الأعرج (النكاري) ((فقال أبو نوح لأبي يحيى : أسألك في حجة العقل أخبرني عن رجل مشرك دعاه رجل مسلم إلى الإسلام فأخذ يعلمه التوحيد وهو يتبعه حرفاً بعد حرف فما مثلته إلى أن يتم التوحيد ؟ أهو على حاله الأولى من الشرك أم هو مسلم ؟ إن قلت : مسلم فإذا يُسَلِّمُ الناسُ ببعض التوحيد دون بعض وإن قلت : هو مشرك فيماذا أشرك ؟ أبالذي سمع من التوحيد أم بالذي لم يسمع ؟ فوقف وقال : لا أعلم بعدها قال أبو نوح لبعض تلاميذه : رأيته إن قال يحيى : إنما أشرك بالذي لم يسمع ، فهو رجوع إلى قولنا : إن حجة الله تقوم بالسمع وبغير السماع ، وهذا قد قامت عليه الحجة بغير سماع ، وإن قال : إنما أشرك بالذي سمع ، فيقال له : إسرارُ التوحيد إذا

(١) هو خلف بن السمع بن أبي الخطاب المعافري كان والده والياً لعبد الوهاب الرستمي على الجناح الغربي من ليبيا فتوفي فأسرع إليه الناس يطلبون منه أن يتولى مكان أبيه دون الرجوع إلى الإمام فقبل وتصرف فلما بلغ الإمام ذلك طالبه باعتزال الولاية وولى غيره ولكنه رفض وأعلن استقلال ليبيا عن الجزائر وتبعه جمع غفير إلا أن الإمام تمكن من الإطاحة به وعزله . انظر الإباضية مذهب إسلامي معتدل ت/ علي يحيى معمر ص ٤٦ .

(٢) من علماء الإباضية عاش فترة الدولة العبيدية الشيعية بالشمال الأفريقي استقر بوارجلان بعد ما هرب عن العبيديين والتقى بالشيخ صالح جنون بن بمریان بوارجلان وأخذ يقيم حلقات العلم بوارجلان وغادرها ثم عاد إليها بعد وفاة جنون فرأى حالها قد تبدل فانتقد أهلها في مسائل عدة وغادرها . انظر سير الشماخي ص ٤٢، الجزء الثاني.

خير من إظهاره ويلزمه أن يكون ترك التوحيد إيمانا ويكون فعله كفرا^(١) وذلك أن " النكارى " يرون أن حجة الله لا تقوم إلا بالسماع فأراد الشيخ أبو نوح مجادلهم في هذه المسألة^(٢) .

وخلاصة الأمر :

أن المدرسة الجدلانية كان لها أثر كبير في إثراء الحركة العلمية بوارجلان خاصة بعد انتقال الإباضية إليها إثر سقوط تاهرت حيث عقدت جلسات المناظرات بين الإباضية ومخالفهم من الفرق الإسلامية وأهمها الأشاعرة والمعتزلة الذين كانوا يقاسمون الإباضية عيشهم في وارجلان ووادي ميزاب وبين الإباضية والفرق التي شذت عنها على نحو ما رأينا وفي هذا يقول الجعيري : ((وما أن هبت ريح الأشاعرة في عاصمة الإباضية الثانية بعد سقوط تاهرت وهي سدراته ووارجلان حتى تصدى لها علماء كان لهم باع طويل في علم الكلام وظهر نتاج زاهر لم يعرف الإباضية له نظيرا ، وظل عمدتهم إلى يومنا هذا فشرحوا وحشوا واختصروا))^(٣) .

ولذلك لمعت في سماء المجتمع الإباضي بالمغرب الأوسط في القرن السادس الهجري وخاصة وارجلان ووادي ميزاب أسماء لأعلام ومؤلفات في مجال العقيدة وظهر فيها الأسلوب الجدلي المكتسب من الواقع المعيش نتيجة اتصال الإباضية بالأشاعرة والمعتزلة من جهة ، والرحلات العلمية ودورها في نمو الفكر الإباضي

(١) الإباضية بالجريد ت/ صالح باجية ص ٨٨، ٨٩.

(٢) ينقل الوسياني في سيره رأي الشيخ أبي عمرو عثمان السوفى (ت ٤٨٦هـ) في هذه المسألة أن حجة الله تقوم بالسماع لمن كان على الدين ويغير السماع لمن لم يكن على الدين. انظر (سير الوسياني ص ٢٤، ٢٥ ج ٢ مخطوط).

(٣) البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت/ فرحات الجعيري ص ١١٨.

وصقل مواهبهم الجدلية من جهة أخرى ولذلك فإن القرن السادس يعتبر قمة مرحلة من مراحل الفكر الإباضي في أصول الدين وبداية مرحلة جديدة ذلك ((لأن أسس هذا الفكر تكاملت حججه النقلية والعقلية والناظر في التراث الذي جاء بعد القرن السادس الهجري يدرك حقيقة ما نقول إذ لا يخلو مصدر من مصادره من الإحالة على كتاب الموجز لأبي عمار أو الدليل والبرهان لأبي يعقوب الوارجلاني))^(١) .

المطلب الثالث: الصلات الثقافية بين إباضية المشرق

والمغرب وأثره العلمي على " وارجلان "

بدأت مرحلة التواصل الثقافي والعلمي بين إباضية المشرق والمغرب منذ الرحلات الفردية التي قام بها طلاب المغرب إلى البصرة للدراسة على يد الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، والتي تلتها أول بعثة علمية منظمة فالتقى هنالك طلبة المغرب بطلبة المشرق ، وبدأ التواصل العلمي عبر الزيارات والمراسلات المختلفة منذ القرن الثاني الهجري وحتى السادس الهجري وما بعده.

ولعل في نسبة الدين لدى إباضية المغرب والمشرق ما يوضح مدى التقارب الكبير بينهم والتي سجلتها شهادتهم التاريخية في كتبهم ومؤلفاتهم ، فهذا أبو اليقظان إبراهيم^(١) يسجل في إحدى رسائله نسبة الدين وشيوخه الذين أخذ عنهم جيلا بعد جيل فيقول : ((أما بعد فهذا ما ثبت عندنا من نسب الدين وسنده منا إلى رسول الله ﷺ وهو كما يأتي: أخذت أنا أبو اليقظان إبراهيم وأنا معاصر للشيخ بيوض إبراهيم أخذنا معا عن شيخنا الحاج عمر بن يحيى عن الشيخ أطفيش محمد بن يوسف — إلى أن قال — عن الإمام أفلح عن الإمام أبيه عبد الوهاب عن أبيه عبد الرحمن عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري عن جابر بن زيد الأزدي

(١) هو أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى من عشيرة البلات ولد يوم الاثنين ٢٩ صفر سنة ١٣٠٦ هـ الموافق الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٨م بالقرارة من أعمال وادي ميزاب جنوبي الجزائر وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ الموافق سنة ١٩٧٣م حفظ القرآن في سن مبكرة واتصل بقطب الأئمة الشيخ أطفيش وتلمذ على يديه وشارك في الدفاع عن بلاده ضد الاستعمار ، له مؤلفات كثيرة منها (سلم الاستقامة ، الإباضية في شمال إفريقيا ، ملحق السير) انظر الشيخ أبو اليقظان كما عرفته ت/ أحمد فرصوص ص ١٥-٥٠ ط. مكتبة الضامري سلطنة عمان سنة ١٩٩٢م.

عن عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ))^(١).

وبالمقابل نجد إباضية المشرق يسجلون هذه الشهادة أيضا حسب علماء كل قرن عدا تنازليا من القرن الخامس عشر فيقول : ((وها نحن أولاء في القرن الخامس عشر الهجري وفيه علماء المعروفون ... فهؤلاء أخذوا دينهم من عدول القرن الرابع عشر ، وهم نور الدين عبدالله بن حميد السالمي إلى أن قالوا : فهؤلاء أخذوا عن عدول القرن الثاني الهجري وهم الربيع بن حبيب صاحب المسند الصحيح المرجع للإباضية ، وحملة العلم إلى عمان وهم الخمسة المشهورون وهم محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة — وسيف جده فارس من فرسان رسول الله ﷺ والمنير بن النير الجعلاني الريامي ، ومحمد بن المعلى الكندي وبشير بن المنذر الترواني ، وموسى بن أبي جابر الأزكاني ... فهؤلاء أخذوا العلم عن أسلافهم الكرام عدول القرن الأول : جابر بن زيد أبا الشعثاء — وعددوا منهم — أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة))^(٢).

ومع أن الترتيب في نسبة الدين عن أبي اليقظان المغربي جاءت حسب المشائخ بالتتابع ، ونسبة الدين عند علماء المشرق في عمان جاءت على حسب علماء كل قرن ، إلا أن الناظر في هاتين النسبتين يجد أن الذي يجمع هذا التأصل هم حملة العلم الخمسة إلى المغرب ، وحملة العلم الخمسة إلى المشرق الذين تلقوا العلم في مدرسة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة.

ولقد كان التواصل العلمي بين المشرق والمغرب في هذا العهد عن طريق

(١) نفس المصدر السابق ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) غرس الصواب في قلوب الأحباب ت/ مشائخ دار القرآن ص ١٧٣-١٧٥ ط. مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ..

الفتاوى والجوابات في مسائل مختلفة يرجعون في حلها إلى أستاذهم وشيخهم أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وكانت هذه المراسلات والفتاوى تعرف طريقها بين المغرب والبصرة وعمان.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب الرستمي وقع خلاف بين الإباضية أحدثه ابن فندين النكاري حول شرط الشورى لبعض دون بعض فبعث إباضية المغرب يستفتون إمام مذهبهم الربيع بن حبيب فجاء الجواب : ((أما بعد فيا إخواننا قد بلغنا ما كان قبلكم وفهمنا ما كاتبتمونا به من أمر الشرط ، فليس ذلك من سيرة المسلمين أن يجعلوا الشرط في الإمامة أن يُقضى أمر دون جماعة معلومة فالإمامة صحيحة والشرط باطل ...))^(١).

وعندما وقع الخلاف في عهد الإمام عبد الوهاب أيضا حول تولية خلف بن السمع المعافري زعيم الخلفية أمور طرابلس بعد وفاة أبيه دون إذن من الإمام وكذاب الإمام بعث يستفتي زعيم الإباضية في هذه الفترة وهو أبو سفيان محبوب بن الرحيل^(٢).

((فلما وصل الكتاب إلى أبي سفيان — رَضِيَ اللهُ عَنْهُ — كتب إليهم بجواب كتابهم بتخطئة من ولي خلفا ، وتصويب من لم يوله))^(٣).

والملاحظ أن جل رسائل المغاربة إلى المشاركة في عهد الرستميين كانت فيما

^(١) السير وأخبار الأئمة لأبي زكريا الوارجلاني ص ٩٤.

^(٢) هو محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة آخر أئمة الإباضية في البصرة عاش في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وله كتاب في تاريخ الإباضية يشتمل على الأخبار والفقه والعقائد مات بعمان وله عهد إلى الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى دونه الدرجيني في طبقاته . انظر : طبقات المشائخ للدرجيني ص ٢٧٨ ج ٢ ، سير الشماخي ص ١١٧-١١٩ ، سير أبي زكريا ص ١٢٢.

^(٣) سير أبي زكريا ص ١٢٣.

يستجد من أحداث سياسية حفاظا منهم على التواصل والاستفتاء في النوازل.

وتسجل المصادر أنه في أواخر الدولة الرستمية ثمة مراسلات علمية بين أهل عمان وأهل المغرب وذلك مما رواه لنا أبو عبد الله الكندي في كتابه بيان الشرع من أن محمد بن محبوب بن الرحيل^(١) . كتب لأهل المغرب على لسان الإمام الصلت بن مالك الخروصي^(٢) يرد فيها على أسئلتهم واستفتاءاتهم في مسائل فقهية وعلمية^(٣).

وتذكر المصادر التاريخية لقاء تم بين أبي عبد الله محمد بن محبوب وعمروس بن فتح^(٤) في مكة المكرمة فأخذ عمروس يستفتي أبا عبد الله في مسائل حفظها هو ونسبها أصحابه وكانت غالب مسائله في الدماء^(٥).

وبعد انقراض الدولة الرستمية كانت هنالك رحلات علمية إلى المشرق وتذكر المصادر الإباضية أن القرن الرابع الهجري كان امتدادا لهذا التواصل فلقد كانت ثمة رحلات لبعض الطلبة المغاربة إلى عمان لتلقي العلم على يد علماء الإباضية ومنهم العلامة ابن بركة صاحب كتاب الجامع يجتمعون لديه في قريته

^(١) هو أحد العلماء الأعلام من أهل عمان ، وابن أبي سفيان محبوب بن الرحيل قدم من البصرة وأقام بمكة مجاورا ثم تقضى في عهد الإمام الصلت بن مالك الخروصي ومات بصحار في الثالث من محرم ٢٦٠ هـ.

^(٢) هو الإمام الصلت بن مالك الخروصي تولى الإمامة من (٢٣٧-٢٧٣هـ) وعلى رأس العلماء الذين بايعوه محمد بن محبوب ، وعمر الصلت في إمامته ما لم يعمر غيره من الأئمة حرر سقطرى من النصارى عندما استغاثته جهضية من سمد الشأن كانت في سقطرى.

^(٣) بيان الشرع ت/ أبو عبد الله الكندي ج ٢٨ ص ١٩٥-١٩٧ ط. وزارة التراث سلطنة عمان.

^(٤) عمروس بن فتح عده الدرجيني من الطبقة السادسة (٢٥٠-٣٠٠هـ) كان عالما عاملا تقضى في عهد أبي منصور الياس إلى الإمام عبد الوهاب الرستمي على طرابلس قضاء طرابلس وله أعاجيب ذكرتها كتب السير وله مؤلفات عديدة . مات مقتولا . أنظر طبقات الدرجيني ص ٥٣٢ ج ٢.

^(٥) طبقات الدرجيني ص ٣٢٤ ج ٢.

ببهاء ، وكان هذا العلامة سخيًا يجود بماله لطلبة العلم ولا ييخل بعلمه^(١) .

ولم يقتصر التواصل العلمي بين المشاركة والمغاربة على اللقاء والمراسلات بل امتد ذلك التواصل ليشمل تدوين السير والآراء والاجتهادات نقلا عن بعضهم بعضاً في كتبهم ومؤلفاتهم ويشهد على ذلك أن سير المغاربة أغلبها روايات علماء المشرق ويلاحظ المطالع لسير أبي زكريا الوارجلاني في القرن الخامس الهجري وطبقات الدرجيني أن أغلب رواياتها نقلا عن العلامة أبي سفيان محبوب بن الرحيل ((ولعل هذه الروايات كانت ضمن مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخراساني والتي نسخها عمرو بن فتح فحفظها من التلف^(٢) ، أو من كتاب أبي سفيان حيث إن له كتابا يشتمل على الأخبار والفقه والكلام والعقائد^(٣) .

وفي القرن السادس الهجري يزداد شغف المغاربة للاطلاع على كتب المشاركة والرواية عنها ((فترى أبا صالح يعلو بن صالح الصدويني الذي توفي عام ٥١٣هـ يأخذ برأي أبي صالح الدهان أحد مشائخ الإباضية في عمان في بعض المسائل الفقهية ونرى أبا الربيع سليمان بن يخلف من علماء الطبقة الحادية عشرة (٥٠٠ - ٥٥٠هـ) يروي عن ابن بركة العماني صاحب الجامع الذي عاش في القرن الرابع

(١) الاستقامة لأبي سعيد الكندي ، تحقيق محمد أبو الحسن ص ٥ ج ١ ط. وزارة التراث سلطنة عمان سنة ١٩٨٥م.

(٢) التقى أبو غانم بشر بن غانم الخراساني بعمر بن فتح وهو متوجه من المشرق إلى المغرب للقاء الإمام عبد الوهاب بن رستم ومعه مدونته المشهورة التي رواها عن تلاميذ أبي عبيدة وهم محمد بن عباد المصري وعبد الله بن عبد العزيز وأبو المورج عمر بن محمد ووائل بن أيوب ومحبوب بن الرحيل فاستودع عمروسا الكتاب فنسخه ، ولولا عمرو بن لسانت هذه المدونة مع جملة ما أحرق من مكتبة المعصومة الرسمية التي قضى عليها العبيديون . انظر طبقات الدرجيني ص ٣٢٣ ج ٢.

(٣) رسالة تفريد كتب أصحابنا ت/ أبي القاسم البرادي ص ٥٦ ضمن كتاب دراسة في تاريخ الإباضية وعقيدتها تحقيق محمد زينهم وأحمد عبد التواب ط. دار الفضيلة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

الهجري^(١) .

كما اعتمد المغاربة على كتاب الدعائم لأحمد بن النظر العماني^(٢) شرح محمد ابن وصاف العماني أيضا ولقد وصلت هذه التسمية إلى بلاد المغرب عن طريق الشيخ أبي موسى عيسى بن زكريا البرانسي^(٣) مع ما جاء به من كتب المشاركة كجامع البسيوي وجامع ابن جعفر ، ولقد اعتمد على هذا الكتاب طلاب العلم في القرن السادس الهجري ومنهم العلامة أبو عمار عبد الكافي ، ويذكر الدرجيني في الطبقات أن طلاب نفطه الذين كانوا يدرسون مع أبي عمار في تونس وجدوا معه كتابا في علوم مذهبه وكان نظما في قصائد فرد عليهم الدرجيني أنه الدعائم لابن النظر^(٤) .

كما اعتمد عليه أبو طاهر الجيطالي صاحب كتاب القواعد وكتاب قناطر الخيرات وهو من علماء القرن الثامن الهجري.

أما عن اعتماد المشاركة على كتب المغاربة فلم يكن في وقت مبكر كما هو الحال عند المغاربة وتسجل كتب إباضية المشرق أقوال علماء المغرب من القرن السادس الهجري وهي الفترة التي نضج فيها الفكر الإباضي المغربي وخاصة الجانب العقدي ((ويظهر ذلك مما ورد في كتاب قاموس الشريعة لمؤلفه العماني جميل بن

(١) الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة ت/ رجب عبد الحليم ص ١٦٧.

(٢) العلامة أحمد بن النظر الناعبي من علماء القرن السادس الهجري وكتابه الدعائم عبارة عن مجموعة قصائد في العقيدة والشريعة وضعت له شروح عديدة منها شرح لمحمد بن وصاف النزوي في مجلدين كبيرين سماه الحل والإصابة وشرح لأحمد بن عبد الله الرقيشي الإزكوي وهو مخطوط مصباح الظلام ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية . انظر الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة ت/ رجب عبد الحليم ص ١٧١ ، نشأة الحركة الإباضية ص ١٨ ت/ عوض خليفات).

(٣) لم أقف له على ترجمة ولعله لم يشتهر بعلم بل كان رجلاً صالحاً.

(٤) طبقات الدرجيني ص ٤٨٧، ٤٨٦ ج ٢ بتصرف.

خميس السعدي الذي أكثر من الإشارة إلى كتب مغربية لا شك أنها كانت موجودة في عمان قبل عصره بزمان طويل)) ^(١) مثل كتاب الجهالات لتبغورين بن عيسى الملشوطي في القرن السادس الهجري.

هذا التواصل الثقافي بين الشرق والغرب والذي جسده الزيارات والمراسلات واللقاءات في الحج وغيره كان له تأثير كبير على نمو الحركة العلمية بوارجلان وازدهارها إبان فترة أبي عمار ويشهد على ذلك مؤلفاتهم في شتى أنواع العلوم الإسلامية والتي أنثروا بها المكتبة الإسلامية فكانت عمدة المتأخرين وزاد المتعلمين إلى يومنا هذا.

المطلب الرابع: مظاهر الحركة العلمية ونتائجها :

وبعد هذا التطواف في العوامل التي نشطت الحركة العلمية بوارجلان والتي جعلت من وارجلان وريثة مجد الدولة الرستمية ووجه الإباضية المشرق في عصر من أزهى عصور الشمال الأفريقي علما وفكرا.

أرى أنه لا بد لنا من التعرف على مظاهر هذه الحركة وأهم المؤلفين من وارجلان في هذه الفترة مع حصر إنتاجهم حسب ما أسعفتنا به المصادر حتى تكتمل صورة هذا البحث فتكون بمثابة الثمرة بعد الغرس.

- (١) أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الوارجلاني (ت ٤٧٤هـ) ، عده الدرجيني ضمن الطبقة العاشرة (٤٥٠-٥٠٠هـ) ^(١) تتلمذ على يد أبي الربيع سليمان بن يخلق المزائي ^(٢) بوادي أريغ ومات بوارجلان من تصانيفه : (كتاب السير وأخبار الأئمة) حققه عبد الرحمن أيوب ويذكر عبد الرحمن أيوب أن له رسائل في الفقه لم نقف عليها ^(٣) .
- (٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرستائي ت (٥٠٤هـ) ^(٤) : أبوه أبو عبد الله محمد بن بكر صاحب نظام العزابة ، ولد بنفسه وسكن

(طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٤٨).

(عده الدرجيني رأس الطبقة العاشرة (٤٥٠-٥٠٠) توفي سنة ٤٧١هـ وذكر البرادي في رسالته (تقييد كتب أصحابنا)) أن أبا الربيع ألف كتابا يتألف من مجلدين رأى الثاني ولم يرى الأول كما يذكر البرادي أن له كتابا في الفضائل والترغيب في الخير انظر (دراسة في تاريخ الإباضية وعقيدتها للبرادي ص ٦٧، ٧١ طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٢٥ مقدمة كتاب السير وأخبار الأئمة لأبي زكريا الوارجلاني ص ١٤).

(١) مقدمة كتاب السير وأخبار الأئمة لأبي زكريا الوارجلاني تحقيق عبد الرحمن أيوب ص ١٥٠.
(٢) السعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت/ فرحات الجعيري ص ١١٥ ، معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ت/ عمر بو عصابه ص ١١١.

(١) الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة ت/ رجب عبد الحليم ص ١٧٣.

وادي أريغ وارتحل إلى تونس ثم رجع إلى وارجلان وبها مات تتلمذ
على والده وعلى الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي له عدة
مؤلفات منها :

— كتاب في مسائل التوحيد.

— رسالة مختصرة في مالا يسع جهله.

— كتاب أبي مسألة في الفروع فقهية.

— كتاب القسمة وأصول الأراضين في الفقه.

— كتاب الألواح^(١).

— كتاب مسائل الأموات.

— كتاب الجنائز في الفقه.

وغيرها.

(٣) أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي : عده الدرجيني ضمن الطبقة
الحادية عشرة (٥٠٠-٥٥٠هـ)^(٢).

ولد قبل ٤٧٩هـ ولم تحدد المصادر التاريخية مولده ولا وفاته ، تتلمذ
على يد الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف وهو كثير الرواية عن أبي زكريا
الوارجلاني وأبي العباس الفرسطائي ولد بوادي سوق وانتقل إلى وارجلان.

(١) سمي بالألواح لأن أبا العباس تركه على الألواح دون تبويض فعرضه ابنه على مشاتخ وارجلان فسمى
كتاب الألواح ولعله في الفقه إلا أن المصادر لم تحدد ماهية هذا الكتاب.
(٢) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٣.

أما مؤلفاته فلم يُؤثر عنه سوى كتاب السؤالات وهو كتاب جامع لقضايا
أصولية ولغوية وتاريخية خاصة في سير الإباضية ورسالة في الفرق^(١).

(٤) أبو سهل يحيى بن إبراهيم بن سليمان ابن زرقون بن ويحمان عاش في
القرن السادس الهجري ولم تحدد المصادر التاريخية مولده ولا وفاته ولد
وعاش بوارجلان قال عنه الشماخي ((أما يحيى بن إبراهيم فمن أئمة
وارجلان))^(٢) أخذ عن الشيخ أبي زكريا يحيى الوارجلاني ، أما
مؤلفاته فمنها (عقيدة التوحيد) وهو ما أثر عنه^(٣).

ومن علماء القرن السادس الهجري أبو عمار عبد الكافي وشيوخه علماء
القرن الخامس الهجري أبو زكريا يحيى بن أبي زكريا وأبو سليمان أيوب بن إسماعيل
المزاتي ورفقاؤه أبو يعقوب الوارجلاني ولهم أثر علمي سيأتي ذكره في الحديث عن
شخصيته في الفصل القادم إن شاء الله.

كما اشتهر أهل وارجلان بالتأليف الجماعي في هذا العصر فظهر ((ديوان
الأشياخ)) وهي موسوعة فقهية اشترك في تأليفها ثمانية أشياخ من العزابة يقول
الشماخي: ((أن العزابة اجتمعوا على تأليف كتاب في المذهب يسهل على
المبتدئين حفظه فصنفوه في خمسة وعشرين جزءا))^(٤) . وعنى بمراجعته ثلاثة
مشايخ من كبار العلماء وهم أبو العباس أحمد بن محمد الفرسطائي وأبو الربيع
سليمان بن يخلف وماكسن بن الخير^(٥).

(١) البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت/ فرحات الجعيري ص ١١٨.

(٢) كتاب السير للشماخي ص ٩٦.

(٣) معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ت/ أبو عصابة ص ١٣٢.

(٤) كتاب السير للشماخي ص ٩٦.

(٥) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة بتصريف.

وبعد : فهذا هو العصر الذي عاش فيه أبو عمار عبد الكافي والذي أثر في تكوين شخصيته وإبراز مكانته وأسهم في بلورة فكره فجاء نسقا فريدا وعلميا غزيرا أسهم في الدفاع عن كتاب الله - تعالى - فكان بحق إمام المذهب في القرن السادس الهجري وحول شخصيته يكون لقاءنا في الصفحات القادمة.

الفصل الثاني

شخصيته

- اسمه ونسبه ومولده ووفاته .
- نشأته ورحلاته .
- علمه .
- شيوخه وتلاميذه ومعاصروه وآثاره .
- أخلاقه وسجاياه

إن المصادر التاريخية الإباضية لم تسعفنا في تحديد مولد أبي عمار أو وفاته وإن أشارت إلى أن وفاته قبل ٥٧٠هـ ولم تحدد بالضبط سنة وفاته ، كما أنها لم تذكر شيئا ذا بال عن نشأته سوى تعرضها إلى هوامش عن بعض جوانب حياته بصورة مقتضبة.

وأقدم مصدر يعتمد عليه في ترجمة الشيخ أبي عمار "طبقات المشائخ بالمغرب" لأبي العباس الدرجيني (ت ٦٧٠هـ) وما بعده من سير نقلت عنه سواء نقلا حرفيا أو بتصرف ، ولم تضيف جديدا على ما جاء في طبقات الدرجيني مما زاد في صعوبة البحث عن شخصية أبي عمار باستثناء بعض الأحداث التي ارتبطت ببعض جوانب حياته قد نعلم تأريخها بالضبط فنذكرها وقد نعلم تاريخا قريبا منها فنحصرها في فترة زمنية معينة هي في الغالب ترجيح براجح وقد نجعل تاريخها أو القريب منها فنقف عند حد الإشارة إلى الحدث دون الخوض في تاريخها.

وهذا كله لا يشبع لهم البحث ويزيد العمل صعوبة وتعقيدا ، ولقد أحبيت الإشارة إلى ذلك في هذا التمهيد لأتمس لنفسي العذر فيما يرد من تقصير أكاد لا أسأل عنه لندرة المراجع وأنا أتحدث عن جوانب شخصيته في الصفحات القادمة.

المبحث الأول

اسمه ونسبه ومولده ووفاته

— تمهيد

— المطلب الأول : اسمه ونسبه

— المطلب الثاني : مولده ووفاته

المطلب الأول : اسمه ونسبه :

اسمه : عبد الكافي بن أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل بن أبي يعقوب يوسف بن محمد التناوتي الوارجلاني^(١).

كنيته : أبو عمار وهو أكبر أولاده وتجمع المصادر التي ورد فيها اسمه على كنيته هذه إلى حد أنه يكاد يعرف بكنيته أكثر من اسمه.

إلا أن أبا يعقوب الوارجلاني يكنى بأبي محمد ولا أعرف إن كان له ولد يسمى بمحمد أم لا ولم أجد ذلك إلا عند أبي يعقوب يقول عند عَرْضِهِ لرسالة عبد الوهاب الأنصاري التي وجهها لأبي عمار ورده عليها : ((جواب رسالة الشيخ الفقيه الفاضل أبي محمد عبد الوهاب بن نمير الأنصاري إلى الشيخ الفاضل الفقيه الأوحّد والإمام الزاهد الحاج أبي محمد الحاج عبد الكافي بن أبي يعقوب أدام الله توفيقه وتسديده))^(٢).

نسبته : ينسب الشيخ أبو عمار إلى " تناوت " وهي إحدى قرى وارجلان بين غدامس ونفزاوة بالجريد^(٣) وتعتبر " تناوت " إحدى القرى البربرية التي لعبت دوراً مهماً ، وحيوياً في نشر المذهب الإباضي في المغرب الأوسط ، وقيل : إن

(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٥ ، سير الشماخي ج ٢ ص ١٠٤ ، معجم أعلام الإباضية ص ٤٨٨ تأليف وطباعة جمعية التراث - الجزائر - غرداية - النسخة التجريبية ، سير أبي عمار بتحقيق مسعود مزهودي ص ٥ ط. مكتبة الضامري سلطنة عمان سنة ١٩٩٦ ، أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي مقارنة بأبي حامد الغزالي ت. مصطفى باجو ص ٨٨ ، معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ت. عمر عصابه ص ١١٥ ، الإباضية في موكب التاريخ ت. علي يحيى معمر ج ٣ ص ٢١٥ .
(٢) العدل والإنصاف ت. أبو يعقوب الوارجلاني ص ٣٣٠ مخطوط.
(٣) معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ت. عمر أبو عصابه.

تناوت اسم لقبيلة بربرية سكنت نفزاوة^(١) ولذلك يقول عمار طالبي : ((إن تناوت اسم لقبيلة ثم سميت بها القرية التي أقامت بها في وارجلان))^(٢).

المطلب الثاني: مولده ووفاته :

لم تحدد المصادر التاريخية التي بين أيدينا سنة مولده ولا وفاته بالضبط كما أشرت إلى ذلك من قبل إلا أن صاحب ((آراء الخوارج الكلامية)) يذكر في معرض حديثه عن رحلة أبي عمار العلمية إلى تونس أنها كانت في عهد الدولة الموحدية فيقول^(٣) : ((وبعد أن أخذ أبو عمار عن شيخه أبي يعقوب ارتحل إلى تونس ودرس هنالك على أساتذة كثيرين ، وكانت تونس في عهد الموحدين في غاية من النشاط العلمي والثقافي فاستفاد من تلك البيئة العلمية الزاخرة))^(٤).

وتمدنا المصادر التاريخية بسنة دخول الموحدين تونس وهي سنة ٥٥٥ هـ^(٥) وعلى هذا فإن مولده يكون سنة ٥٤٠ هـ تقريباً حسب هذا الرأي لأنه في الغالب سافر إلى تونس بعد سن البلوغ والمتعارف عليه أنه [١٥] سنة فهل معنى هذا أنه عاش فترة قصيرة لا تتجاوز ٢٩ سنة هـ لأنه مات قبل ٥٧٠ هـ^(٦) وأقرب عام سنة ٥٦٩ هـ لتاريخ وفاته.

(١) سير أبي عمار تحقيق مسعود مزهودي ص ٥.
(٢) انظر آراء الخوارج الكلامية ج ١ ت. عمار طالبي ص ٢١٥ ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر سنة ١٩٧٨ م.
(٣) بنى عمار طالبي هذا الرأي بناء على رسالة الشيخ أبي اليقظان إبراهيم في ترجمة أبي عمار انظر: آراء الخوارج الكلامية ج ١ ص ٢١٧.
(٤) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧.
(٥) تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧.
(٦) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٥ ، سير الشماخي ج ٢ ص ١٠٤.

أم أنه سافر إلى تونس قبل سن البلوغ ؟ أو أن الموحدين لم يكونوا قد استولوا بَعْدُ على تونس في فترة وجود أبي عمار فيها ، ولكن غلبتهم على بلاد المغرب جعلت المؤرخين يجزمون بأن العهد في معظم بلاد المغرب الثلاث الأدنى والأوسط والأقصى كان عهد مَوْحِدِيًّا.

هذه أسئلة لم أعثر لها على جواب إلا أن الذي نرجحه أن تكون ولادته متقدمة عن سنة ٥٤٠هـ أي أن سفره بعد سن البلوغ لأن المصادر تجمع على تلقيه العلم على يد مشائخ وارجلان قبل سفره إلى تونس كما أسلفنا وهذا يدل على طول مكثه بوارجلان قبل سفره إلى تونس ومما يرجح ذلك أيضا أن شيخه أبو زكريا الوارجلاني والذي أخذ عنه أبو عمار قبل سفره إلى تونس توفي سنة ٥٢٨هـ^(١) أي أن سفره قبل هذا التاريخ أو بعده بقليل ما بين (٥٠٠-٥١٠هـ) على سبيل التقريب.

وفاته :

أما عن وفاته فالسير الإباضية أيضا لم تذكر سنة وفاته كدأبها مع كثير من علمائها المشاهير إلا أن الشيخ أبا يعقوب الوارجلاني يشير في طيات كتابه " العدل والأنصاف " إلى رسالة وردت إلى الشيخ أبي عمار من عبد الوهاب بن نمير الأنصاري من غانا^(٢). فقرأها ولم يتمكن من الإجابة عليها لدنو أجله يقول:

(١) سير الوسياني ص ١٢٤ مخطوط.

(٢) هو عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن نمير الأنصاري أحد فقهاء الإباضية بغانا كان كثير المراسلة لعلماء وارجلان يستفتيهم في العقيدة والشريعة ولم ترد له ترجمة إلا أن ذلك نستشفه من كتاب الدليل والبرهان ، انظر : الدليل والبرهان ت. أبو يعقوب الوارجلاني تحقيق سالم بن حمد الحارثي ص ٧٧ ج ١ ط. وزارة التراث — عمان سنة ١٩٩٧م ، العدل والأنصاف لنفس المؤلف ص ٣٣٠ مخطوط.

((اعلم يا أخي إن الكتاب قد وقف عليه الشيخ عبد الكافي فصادف أيام الهزاهر والحركات كما لا يخفى عليك وأنت في الإقليم الأول — غانا — آمنا مطمئنا وهو في الإقليم الثالث — وارجلان — خائفا مترقبا فطعن في نيته^(١) وقد تكفل لك بالجواب بعض تلامذة الشيخ — يعني نفسه —))^(٢).

ويقول أيضا في الدليل والبرهان : ((فامتنع أبو عمار من إجابته بعلم ومعان حتى توفي))^(٣).

ويتضح من النصين :

أن رسالة الأنصاري جاءت ووارجلان تشهد حالة من الاضطرابات والفوضى وهي التي أدت إلى اعتقال أبي عمار والتي عبر عنها أبو يعقوب بقوله : ((طعن في نيته)) كناية عن الأسى الذي بلغ بالشيخ وأدى إلى مرضه ووفاته ومع أن تاريخ وصول هذه الرسالة مجهول إلا أن هذه القلائل كانت بسببين الأول : حروب الدولة الموحدية في عهد يوسف بن عبد المؤمن ضد معارضيها وهو العهد الذي مات فيه أبو عمار ، والثاني : حياة السلب والنهب التي خلفتها قبائل هلال وسليم في بلاد المغرب والتي تقادم عهدها بسبب هج بعض قبائل البربر منهج الأعراب من هلال وسليم أمثال بني سمنجاسن وغيرهم^(٤).

(١) ورد في النسخة المطبوعة بوزارة التراث — سلطنة عمان "طعن في بطنه" وهذا خطأ حيث إنه لم يثبت أن أبا عمار مات مقتولا كما أن العبارة بهذه الصيغة يمتنع حملها على المجاز .

انظر : العدل والإنصاف ت. أبو يعقوب الوارجلاني ص ١٥٧ ج ٢ ط. وزارة التراث — سلطنة عمان سنة ١٩٨٤م.

(٢) العدل والإنصاف لأبي يعقوب الوارجلاني ص ٣٣٠ مخطوط.

(٣) الدليل والبرهان لأبي يعقوب الوارجلاني ص ٧٧ ج ١ تحقيق سالم بن حمد الحارثي ط. وزارة التراث سلطنة عمان سنة ١٩٩٧م.

(٤) سير الوسياني ص ٩٨ مخطوط.

وهذان الحدثان لا نستطيع من خلالهما تحديد سنة وفاته بالضبط لأن عهد يوسف بن عبد المؤمن استمر حتى ٥٧١هـ^(١). ووفاته أبو عمار قبل ٥٧٠هـ كما أجمعت عليه المصادر الإباضية.

وعهد هلال وسليم استمر قرناً ونيفاً من الزمان فلقد دخل هؤلاء الأعراب المغرب سنة ٤٥٩هـ — كما ذكر الوسياني في سيره^(٢) — ومع أن تاريخ دخولهم وارجلان مجهول إلا أن عبد المؤمن بن علي حاربهم سنة ٥٥٥هـ وانتصر عليهم في معركة جبل القرن^(٣) وبالرغم من ذلك فإن احترافهم للسلب والنهب ظل مستمرا بعد هذا الحدث بوقت طويل.

مات أبو عمار "بتناوت" ودفن في أعلى جبل بامنديل من ضواحي وارجلان وقبره لا يزال موحداً يزوره أهل وارجلان كل عام^(٤) وهو عبارة عن غار منحوت في ربوة جبل بامنديل مساحته قدر ما يقف فيه المصلي ويأوى مجلسه نحو عشرة من الرجال^(٥).

(١) انظر تاريخ ابن خلدون مج ٦ ص ٢٤١.

(٢) سير الوسياني ص ٢٥٠ مخطوط.

(٣) الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ت. د. عبد الله علام ص ٢٣٦.

(٤) موسوعة أعلام الإباضية ص ٤٨٩ النسخة التجريبية ت. و. ط. جمعية التراث — الجزائر.

(٥) آراء الخوارج الكلامية د/ عمار طالبي ص ٢١٩ ج ١.

المبحث الثاني

نشأته ورحلاته

— المطلب الأول : النشأة العزائية لأبي عمار .

— المطلب الثاني : رحلته إلى تونس .

— المطلب الثالث : رحلته إلى الديار المقدسة .

مما لا شك فيه أن النشأة لها دور كبير في تكوين شخصية الفرد واستكمالاً للحديث عن شخصيته نتحدث في هذه الصفحات عن نشأته ورحلاته.

1 لمطلب الأول: النشأة العزابية لأبي عمار :

ولد أبو عمار ونشأ في بيت علم وعبادة وصلاح وتقى ، فلقد كان والده وجده من العلماء الصالحين^(١) وخال والده أبو يعقوب الوارجلاني من العلماء الفطاحل الذين يشار إليهم بالبنان^(٢) مع ما كانت عليه هذه الأسرة من الغنى واليسار ورغد العيش.

عاش أبو عمار في تناوت التي انتقل إليها والده في آخر عمره كما ذكر الوسياني في سيره^(٣) ولقد كانت نشأته تتبلور في المحافظة على التعاليم الدينية والقيم الخلقية في ظل نظام العزابة في فترة من أصعب مراحل الحياة بوارجلان وحقبة تاريخية لا تُنسى ، انتشر فيها السلب والنهب واختل فيها الأمن ففسدت الأخلاق إلا من رحم الله ، ولذلك فإن المحافظ على دينه كالقابض على الجمر يتضرر من هذا الوضع كما هو الحال عند والد أبي عمار فقد كان كثيراً ما يردد: ((لم يعجبني ما

(١) يورد الوسياني في سيره كرامات لجد أبي عمار بروايات والده ، ومنها اتساع قبره حين مواريته وله كرامات أخرى ذكرها الشماخي في سيره الوسياني ص ٢٥٨ مخطوط ، سير الشماخي ج ٢ ص ١٤٧، ١٤٨.

(٢) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت. مصطفى باجو ص ٨٩.

(٣) سير الوسياني ص ٣٥٨ مخطوط.

رأيت من أهل هذا الزمان وليس على هذه السير أدركنا أوائلنا ألا لم تكن النجاة إلا في مثل ما أدركنا عليه أوائلنا فلا أرى أهل هذا الزمان ينجو منهم إلا من شاء الله^(١).

لقد فطن والد أبي عمار إلى حال مجتمعه فعقد العزم على تربية أبنائه التربية الإسلامية الصحيحة التي نشأ عليها فوجد ضالته في حلقات العزابة التي أسسها أبو عبد الله محمد بن بكرت (٤٤٠هـ) والتي سرعان ما انتشرت في كافة المجتمعات الإباضية بالمغرب الأدنى والأوسط.

إن حلقات العزابة في تلك الفترة بجانب سلطتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تمثل مدرسة لتعليم أبناء المجتمع الإباضي يفد إليها الإباضية لتلقى العلوم الإسلامية على يد مشايخها من مختلف بلدان المغرب ويشترط نظام العزابة استظهار القرآن الكريم لمن يرغب الالتحاق بحلقاته واجتياز اختبار القبول الذي يمتد من ثلاثة أشهر حتى سنة كاملة ليتسنى لشيخ الحلقة معرفة سيرة الطالب وسلوكه بالسؤال عنه ومراقبته قبل أن يضمه إلى باقي الطلاب^(٢).

حفظ أبو عمار القرآن الكريم وهو صغير ، واجتاز اختبار القبول بنجاح منقطع النظير ، والتزم أبو عمار بالوظائف المعهودة إليه وهو في دور التلاميذ ، وهو ما يسمى بالسيرة في نظام العزابة ((من التخلق بالآداب الإسلامية والتفاني في عمارة المسجد — مقر العزابة — وخدمته والإعراض عن زخارف الدنيا ومتاعها إلا في حدود ضرورة والإخلاص في أداء الواجبات والمفروضات ومدارسة القرآن واستزادة العلم والحرص على المصلحة العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٥٨.

(٢) نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي ميزاب ت. اسماعيل صالح ص ٥٤.

واجتتاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن))^(١).

واستطاع أبو عمار أن ينتقل من طور أصحاب اللويحات إلى طور أصحاب الكتب^(٢). لما ظهر منه من ملكة في الحفظ والفهم مع ما كان عليه من حرص على طلب العلم وشغف لحضور مجالسه.

تتلمذ أبو عمار في هذه الفترة على يد شيوخ أجلاء من أعلام عزابة وارجلان فأخذ عنهم في التفسير والفقه والحديث والأدب وغيرها من العلوم.

واستطاع أبو عمار أن يلم بظروف مجتمعه من خلال الجولات الميدانية والتي كانت توسد إليهم حيناً بعد حين للاطلاع على أحوال " وارجلان " والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مما كان لهذا الدور من أثر كبير في تنظيمه للعزابة وترعّمه لمجلسها بعد رحلته العلمية إلى تونس.

(١) نفس المصدر السابق ص ٥٥.

(٢) أصحاب اللويحات يطلق على الطلاب حديثي العهد بالدراسة في نظام العزابة حيث يمنح الطالب لوحة يكتب عليها ما يمليه عليه أستاذه فإذا كان مستواه العلمي أعلى ويتمتع بقوة حفظ وفهم ينقل إلى أصحاب الكتب ، وهي طبقة أعلى من سابقتها كما نقول في نظام التعليم المعاصر المرحلة الابتدائية ثم الإعدادية ثم الثانوية وهكذا [نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بميزاب ص ٨٥ بتصرف].

١ لمطلب الثاني: رحلته إلى تونس :

عندما أكمل أبو عمار دراسته بوارجلان وأجازته شيوخها ، عزم على الارتحال إلى تونس منارة العلم ومقصد العلماء آنذاك ، ويذكر الدرجيني أن سبب ارتحاله إلى تونس يرجع إلى حرصه على منادمة العلماء والانقطاع عن اللسان البربري حتى يتعود على العربية الفصحى فيقول : ((والذي توخاه في قصده تونس شيئين أحدهما : ملاقة من يشغل خاطره عن ذكر أهله ، والثاني : أراد أن ينقطع عن اللسان البربري بالبعد عمن يخاطبه به والتدريب على اللسان العربي بكثرة محالطة من يخاطب به))^(١).

أما عن تاريخ هذه الرحلة فلم تسعفنا كتب السير عن تاريخ معين لها بينما تناقلت الدراسات المعاصرة أن سفره إلى تونس كان في العهد الموحد^(٢).

كما أن السير لم تشر إلى بلد بعينه حظ فيه أبو عمار رحالته لتلقى العلوم في تونس ، إلا أن الوسياني يذكر في معرض حديثه عن سيرة أبي عبد الله محمد بن بكرت (٤٤٠هـ) أنه ارتحل إلى القيروان لإصلاح لسانه كعادة البربر الذين كانوا يحرصون على الارتحال إليها لتعلم العربية الفصحى حيث يتخذ كل واحد منهم مودبا يعلمه اللغة والأدب ، وقد ينتقل الواحد بين مجموعة من المودبين لاختلاف تخصصاتهم^(٣) مما يجعلنا نقطع بأنه ارتحل إلى القيروان كعادة قومه ولقد كانت المجالس العلمية بالقيروان في هذه الفترة تجمع بين علوم اللسان والجنان لأن غالبية سكان القيروان من العرب الذي نزحوا مع الفتوحات وموجات الهجرة المتتالية

(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٦.

(٢) انظر ص ٩٧ من هذا البحث.

(٣) سير الوسياني ص ٦٧ مخطوط بتصرف.

ولقد هاجر إليها الكثير من العلماء الذين أثروا الحركة العلمية بها في مختلف فتراتهما.

ويذكر أن القيروان في العهد الموحد استعادت نشاطها الثقافي على يد عبد المؤمن بن علي الذي استطاع السيطرة عليها سنة ٥٥٥هـ وأعاد وجهها الحضاري الذي فقدته بعد الغزو الهلالي سنة ٤٤٣هـ^(١). ولقد كانت طيلة العهد الموحدى كعبة القُصّاد ومعدن العلم والمعرفة ومقر فطاحل العلماء والأعلام.

أما جزيرة جربة الإباضية^(٢) في تونس فلم تكن في هذه الفترة تشهد حركة علمية وذلك لكثرة الفتن التي أحاطت بها وعلى ذلك فإن زيارة أبي عمار لجربة خلال رحلته العلمية — إن تحققت — لم تكن زيارة علمية أكثر منها زيارة سياحية فلقد أعمتها الفتن منذ حملة المعز بن باديس عليها سنة ٤٣١هـ وحتى ما بعد حملة النصاري سنة ٥٢٩هـ^(٣)، مما أدى إلى تراجع الحركة العلمية بها في هذه الفترة.

مكث أبو عمار في القيروان عدة أعوام^(٤) تعلم خلالها علوم اللغة والفلسفة وعلوم الشريعة فلما أنس أساتذته وشيوخه إلى علمه وفطنته سمحوا له بالاستقلال بالتدريس وأجازوه للفتوى^(٥).

بعدها عاد أبو عمار إلى وارجلان لكي يؤدي رسالته العلمية ويسهم في إثراء حركتها.

^(١) الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي ص ٢٨٨.

^(٢) هي جزيرة بتونس على مقربة من قابس يسكنها الإباضية فتحها رويغ بن ثابت الأنصاري سنة ٤٧هـ زمن معاوية بن أبي سفيان.

انظر [معجم البلدان للحموي ج ٢ ص ١١٨].

^(٣) محاضرة [ملاح عن الحركة العلمية عند الإباضية بجربة من الفتح الإسلامي سنة ٤٧هـ إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري للشيخ فرحات العجبري ص ٦ ط. جمعية صيانة جربة].

^(٤) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٨٦.

^(٥) الإباضية في موكب التاريخ ت. علي يحيى معمر مج ٣ ص ٢١٥.

المطلب الثالث: رحلته إلى الديار المقدسة :

أما رحلته الثانية فلقد كانت إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج بوصفها ركنا من أركان الإسلام وفرضا واجبا عند الاستطاعة المادية والبدنية ، وتأتي أهمية هذه الرحلة لكونها رحلة دينية علمية للاطلاع على جوانب الفكر والثقافة الإسلامية بالشرق.

أما عن زمن هذه الرحلة فقد جاءت في مرحلة نضوجه الفكري ونبوغه العلمي وفي فترة متأخرة من عُمر أبي عمار لأنها جاءت بعد رجوعه من تونس بفترة طويلة ، ويذهب " أوعوش " إلى أن زمن هذه الرحلة كان مدة سنتين ذهابا وعودة^(١) بينما يرى الباحث مصطفى باجو أنه استنتاج غير دقيق لأن المسافة في الذهاب والعودة إلى الحج لا تستدعي هذه الفترة الطويلة^(٢) إلا أنني أرجح ما ذهب إليه الباحث أوعوش من أن زمن هذه الرحلة يستغرق سنتين لسببين :

أ) أن هذه الرحلة لاقى فيها أبو عمار من المشاق ما لاقى والتي سطرها أبو يعقوب الوارجلاني في قصيدته الحجازية وذكر خلالها غرق سفينتهم وعطشهم ونفاد زادهم وتغير مسار العودة عبر الديار المصرية فطال زمن الرجوع عن زمن الذهاب^(٣).

ب) أن هذه الرحلة بجانب كونها رحلة دينية فهي أيضا رحلة علمية مر خلالها أبو عمار على قرى ومدن وبلدان عربية وإسلامية ، ومع ما

^(١) أبو يعقوب يوسف الوارجلاني ت. بكير بن سعيد أوعوش ص ٤١ نقلا عن أبي يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت. مصطفى باجو ص ١١١.

^(٢) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ص ١١١.

^(٣) نفس المصدر السابق ص ١١٢.

عرف عنه من شغف بالعلم لا يستبعد أن يتأخر قليلا في بعض هذه البلدان ليطلع على جوانب الثقافة الإسلامية بها ، وخاصة أنها أول رحلة له إلى المشرق ، كما أن قافلته ضمت علماء أمثال أبي يعقوب مما ألهم حماسهم في طلب العلم خلال هذه الرحلة ، وليس أدل على ذلك من المسائل التي أثرت خلال هذه الرحلة والتي أوردها الدرجيني في طبقاته^(١) والتي أدلى فيها أبو عمار بدلوه مما سيأتي ذكرها ونحن نتحدث عن علمه بعيد الصفحات القادمة إن شاء الله.

ولقد حاز على إعجاب من شغف بالعلم لا يستبعد أن يتأخر قليلا في بعض هذه البلدان ليطلع على جوانب الثقافة الإسلامية بها ، وخاصة أنها أول رحلة له إلى المشرق ، كما أن قافلته ضمت علماء أمثال أبي يعقوب مما ألهم حماسهم في طلب العلم خلال هذه الرحلة ، وليس أدل على ذلك من المسائل التي أثرت خلال هذه الرحلة والتي أوردها الدرجيني في طبقاته^(١) والتي أدلى فيها أبو عمار بدلوه مما سيأتي ذكرها ونحن نتحدث عن علمه بعيد الصفحات القادمة إن شاء الله.

ولقد حاز على إعجاب من شغف بالعلم لا يستبعد أن يتأخر قليلا في بعض هذه البلدان ليطلع على جوانب الثقافة الإسلامية بها ، وخاصة أنها أول رحلة له إلى المشرق ، كما أن قافلته ضمت علماء أمثال أبي يعقوب مما ألهم حماسهم في طلب العلم خلال هذه الرحلة ، وليس أدل على ذلك من المسائل التي أثرت خلال هذه الرحلة والتي أوردها الدرجيني في طبقاته^(١) والتي أدلى فيها أبو عمار بدلوه مما سيأتي ذكرها ونحن نتحدث عن علمه بعيد الصفحات القادمة إن شاء الله.

(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩٠ تحقيق وطباعة إبراهيم طلال.

المبحث الثالث

شيوخه ومعاصروه وتلاميذه

— المطلب الأول : شيوخه .

— المطلب الثاني : معاصروه .

— المطلب الثالث : تلاميذه .

— المطلب الأول : شيوخه .

— المطلب الثاني : معاصروه .

— المطلب الثالث : تلاميذه .

(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩٠ تحقيق وطباعة إبراهيم طلال.

المطلب الأول: شيوخه :

تلمذ الشيخ أبو عمار على يد مشايخ أجلاء كانوا شيوخا مشرقا في عصرهم ، وأقمارا متألقة في سماء كونهم ، وقدوة طيبة لتلاميذهم ، أخذ عنهم في مختلف العلوم ومع تعددهم وتباين أقطارهم فمنهم علماء بوارجلان ومنهم علماء بتونس ، إلا أن المصادر التاريخية التي تناولت أبا عمار من قريب أو بعيد لم تشر إلى أسماء معينة ولم تنقل روايات على لسان الشيخ أو غيره سوى بعض من شيوخه بوارجلان وردوا على لسان أقرانه ومنهم :

١ . أبو زكريا يحيى بن أبي زكريا :

يعد أبو زكريا من علماء الطبقة الحادية عشرة (٥٠٠هـ — ٥٥٠هـ) حسب تصنيف الدرجيني^(١) وهو من أشهر علماء وارجلان في القرن السادس الهجري وصفه أبو العباس بأنه ((شديد الغيرة ، مستشعر خشية الله ﷻ لا يخشى غيره))^(٢) خاض في بحور العلم المختلفة ((قرأ العلوم وأتقنها ووضح المشكلات وبينها ورتب السير وأحكمها ، وتعلم العلوم وعلمها))^(٣). وله في الأدب نبذ تذكر أوردها الدرجيني في طبقاته في نواح متفرقة من كتابه ، كما سطر الدرجيني في رواياته عن أبي زكريا كرامات تحدثت عنها وارجلان أثرت عنه رَحِمَهُ اللهُ ومنها أنه نظر إلى خفافش في أحد المساجد قد آذى المصلين وشغل عليهم صلاتهم فسقط ميتا^(٤) ، ومن كراماته الرؤيا التي رآها أبو عمار عبد الكافي يقول الدرجيني

(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٧٠.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) سير الشماخي ج ٢ ص ١٠٠.

على لسان أبي عمار : ((حضرت أنا وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم مجلس شيخنا أبي زكريا يوما فقصصت رؤيا رأيته وذلك أني رأيت إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ نزل من السماء إلى ((تموصين — قرية من قرى وارجلان — فتعلقت نفس الشيخ أبي زكريا إلى الرؤيا فجعل يقول : كيف رؤياك يا عبد الكافي فقال أبو عمار^(١) : لا أعلم أحدا كملت فيه هذه الصفات غير النبوة في هذا الزمان إلا هذا الشيخ وإني لأحسب أنه سيموت في هذا العام فمات فيه بعد أشهر))^(٢).

وكانت وفاته رَحِمَهُ اللهُ في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٨هـ بعد صلاة الظهر^(٣) ولم يؤثر عنه مؤلفات لا في سير الإباضية ولا عند البرادي في رسالته تقييد كتب أصحابنا.

٢ . أبو سليمان أيوب بن إسماعيل المزاتي :

وهو من طبقة الشيخ أبي زكريا كما صنفه الدرجيني^(٤) ووصفه بأنه ((بحر تتقاذف في غواربه السفن ، وبدر يقتدى به من اقتفى من المقتفين))^(٥).

(١) أورد الباحث مصطفى باجو هذه الرواية في كتابه ((أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي مقارنة بأبي حامد الغزالي)) إلا أنه نسب القول ((لا أعلم أحدا ... الخ)) إلى أبي يعقوب بالرغم من أن الدرجيني في طبقاته وهو المصدر الأصلي للرواية ينسب القول إلى أبي عمار فيقول على لسان أبي عمار ((... فجعل يقول : كيف رؤياك يا عبد الكافي : يحب أن أكررها عليه فالتفت إلى أبي يعقوب فقلت له : لا أعلم ... الخ)) انظر أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت. مصطفى باجو ص ٨٧ ، طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩٠.

(٢) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٩ وما بعدها.

(٣) سير الوسياني ص ١٢٤ مخطوط.

(٤) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٥٩.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

كما كان الشيخ مدرسة تتلمذ على يديه أعلام وارجلان في القرن السادس الهجري ومنهم أبو عمار وعثمان بن خليفة السوفي وأبو يعقوب الوارجلاني^(١) وغيرهم وكان - كما وصفه الدرجيني - باراً بتلامذته الذين يقدون إليه من كل مكان فيسكنهم داراً قريباً من داره ويقوم برعايتهم وتدريب شؤونهم^(٢).

وللشيخ أيوب كرامات ذكرها الدرجيني في طبقاته منها زيارة الجن له واختصامهم بين يديه وغير ذلك^(٣).

ومما يدل على أستاذه للشيخ أبي عمار مربية أبي يعقوب الوارجلاني له بعد موته ، وأبو يعقوب ((الوارجلاني)) كان رفيق أبي عمار في دراسته بوارجلان مما يجعلنا نحرم بأستاذه له.

وقد رثاه أبو يعقوب الوارجلاني في قصيدة طويلة بلغت ثمانين بيتاً مطلعها:

أيوب ما أيوب لا أيوب أودي به قدر الردى المتجلب^(٤)

ولا نعلم سنة وفاته كما أنه لم يؤثر عنه تأليف ، ولم تطالعنا المصادر بما يفيد ذلك.

المطلب الثاني : معاصروه :

١ . أبو يعقوب الوارجلاني :

هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراي^(١) من سدراته قرية من قرى وارجلان صنفه الدرجيني ضمن طبقة أبي عمار (٥٥٠ - ٦٠٠ هـ) ورفيق أبي عمار في رحلته إلى الحج^(٢).

وصفه الدرجيني بأنه : ((بحر العلم الزاخر ، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر))^(٣). وكان رَحِمَهُ اللهُ شغوفاً بالعلم يجتهد على تحصيله ليله ونهاره يقول الدرجيني : ((إنه أقام سبعة أعوام ملازماً داره لا ينصرف فكان متى زاره أحد من الزوار وَجَدَهُ إما ينسخ ، وإما يدرس ، وإما يقابل ، وإما يبري الأقلام ، وأما يطبخ الحبر ، وأما يسفر كتاباً لا يعدل عن هذا الفن إلى ما سواه إلا إذا قام لأداء فريضة))^(٤).

ارتحل أيام شببته إلى الأندلس لطلب العلم وكانت الأندلس حينها عامرة بالعلماء أمثال أبي بكر بن العربي ت [٥٤٣ هـ] ، وأبو بكر بن الطفيل ت [٥٧١ هـ] وغيرهم فلما قضى نهمه عاد إلى وارجلان ليسهم في الحركة العلمية بها له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم ومنها ((العدل والإنصاف)) في أصول الفقه و ((الدليل والبرهان)) في العقيدة وله تفسير قال عنه البرادي :

((وجدت في بعض بلاد " أريغ " سنة ست وستين من مائتنا هذه - أي

^(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩١.

^(٢) انظر ص ١٠٧ من هذا البحث.

^(٣) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩٢.

^(٤) نفس المصدر والصفحة.

^(١) أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ت. مصطفى باجو ص ٨٦.

^(٢) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٦٠ بتصرف.

^(٣) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٦٠.

^(٤) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٢.

المئة السابعة الهجرية — سفر في تفسير الفاتحة وسورة البقرة وآل عمران أحسب أنه بخطه لم أر سفرا أضخم منه لا يسعه اليد ولا يوضع إلا في الحجر أو في الحمل ولم أر أبلغ منه في إعرابه ولا لغته ولا تصريفه ولا فقهه ((^(١)).

ويصف الدكتور . الجعبري مؤلفات أبي يعقوب فيقول : ((ويمكن أن نعتبر أن مؤلفات أبي يعقوب مكتملة ومركزة لما جاء عند أبي عمار)) (^(٢)).

ومن تلامذته : أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعقوب ت [٦٠٠هـ] وهو ولد أبي يعقوب قال عنه الدرجيني : ((إمام في علم الأدب ، وإن ذاكر في الفروع فيا للعجب)) (^(٣)).

ومن تلامذته أيضا أبو سليمان أيوب بن نوح (^(٤)) وغيرهم ، توفي الشيخ أبو يعقوب بعد وفاة أبي عمار — رحمهما الله — سنة ٥٧١هـ.

* وما تجدر الإشارة إليه أنه ثمة معاصرون آخرون لأبي عمار إلا أنهم لم يكونوا في درجة الشيخ أبي يعقوب كما أنني لم أعثر لهم على ترجمة إلا بعض الإشارات أو المراسلات التي وردت في كتب السير ومنهم :

- أبو عبد الرحمن الكرخي (^(٥)) الذي بعث برسالة إلى علماء وارجلان

(^١) رسالة في كتب الإباضية لأبي القاسم البرادي ص ٧٠ تحقيق د. محمد زينهم ، أحمد عبد التواب ط. دار القلم ١٩٩٤م.

(^٢) البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت. د/ فرحات الجعبري ص ١٢١.

(^٣) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩٢.

(^٤) لم أقف له على ترجمة.

(^٥) من علماء الإباضية بوادي ميزاب كان معاصرا لأبي عمار عبدالكافي وبينهما مراسلات ، ولقد كان علماء وشيوخ ميزاب يجتمعون في روضته لم ترد له ترجمة في الطبقات ولا في سير الشماخي ولم أعثر له على ترجمة إلا أن ما ذكرت أستنتفه من رسائله المتفرقة .

انظر : طبقات الدرجيني ص ٤٨٨ .

يسألهم في العقيدة فأجابه الشيخ أبو عمار في اليقين والقدر وغيرها (^(١)) ، واستفتاؤه علماء وارجلان يدخله في جملة التلاميذ إلا أنني لم أعثر على ما يثبت تعلمه على أيديهم ولعلها مسائل من باب المذاكرة.

- وأبو الربيع سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني وهو جد أبي العباس الدرجيني صاحب الطبقات ومعاصرته لأبي عمار تؤخذ من إشارة الدرجيني إلى تعلمه على الشيخ أبي سليمان أيوب المزاني شيخ أبي عمار وذلك في معرض سرده لروايات الشيخ أيوب ، يقول الدرجيني على لسان والده : ((كان أبي — أي جد صاحب الطبقات — يقرأ على شيخه أبي سليمان أيوب بن إسماعيل حتى قضى حاجته من الطلب)) (^(٢)) وليست له تأليف تذكر.

- ومنهم الشيخ العلامة أبو رحمة حنين الوارجلاني قال عنه الشماخي : ((إمام من أهل التحقيق صادق ، تعلم العلم والكلام وعلمهما وهو في عصر أبي عمار)) (^(٣)).

وأثر عنه مسائل في الديات ذكرها الشماخي في سيره تدل على علمه وفقهه (^(٤)) إلا أنني لم أقف على ترجمة له.

(^١) الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٨.

(^٢) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٦١.

(^٣) سير الشماخي ج ٢ ص ١٥٠.

(^٤) المصدر السابق ونفس الصفحة.

— ومنهم الشيخ العلامة أبو الربيع سليمان بن محمد بن إسحاق قال عنه الشماخي: ((وكان شيخاً متكلماً معاصراً لأبي عمار ولأبي يعقوب الوارجلاني))^(١).

[illegible]

(۱) المصدر السابق ص ۱۷۳.

المطلب الثالث : تلامذته :

كان الشيخ أبو عمار مدرسة تتلمذ على يديه الكثير من طلاب العلم ، وقصده المريدون من مختلف مواطن الإباضية بالمغرب وخاصة جربة ولم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا بترجمة لطلابه إلا بعض الإشارات التي جاءت في روايات عن الشيخ أبي عمار والتي جمعها أبو عثمان السوفي في كتابه السؤالات وهو كتاب جامع لقضايا أصولية ولغوية وتاريخية خاصة في سير الإباضية⁽¹⁾ وذكرها الشماخي في سيره عند معرض حديثه عن أهل الكرامات ومنهم:

— أبو يحيى إسماعيل بن يحيى : أشار الشماخي في سيره إلى أخذه عن أبي
 عمار رَحِمَهُ اللهُ ، مستدلا بكتاب السؤالات يقول : ((ومنهم أبو يحيى إسماعيل
 بن يحيى من أخذ من أبي عمار ، وفي السؤالات : إبليس أبو الجن الذي هو الجان
 ولما شمله الأمر جاز أن يستثنى من المأمورين ثم يقول : روى ذلك أبو يحيى إسماعيل
 عن أبي عمار)) (٢) .

— أبو الربيع سليمان بن يومر : يقول الشماخي: ((أخذ من أبي عمار وغيره))^(٣) ويورد رواية لابن يومر من كتابه السؤالات عن أبي عمار في العقيدة يقول : ((وفي السؤالات الواحد في صفة الله على أربعة أوجه : واحد في الصفة ، وواحد في الذات ، وواحد في الفعل، وواحد في العبادة، وأمر الشيخ أبو عمار بأن يزداد الرابع يعني في كتبه والراوي عن أبي عمار سليمان بن يومر))^(٤).

(١) البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت. د/ فرحات الجعيري ص ١١٨.

(١) سير الشماخي ج ٢ ص ١٧٢.

(١) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٣.

(١) سير الشماخي ج ٢ ص ١٧٣-١٧٤.

— أبو الفتوح : هكذا ورد اسمه في سير الشماخي ويذكر أنه أخذ العلم عن أبي عمار في سن متأخرة يقول الشماخي : ((أبو الفتوح شيخ أخذ العلم من أبي عمار متأخراً))^(١) ويذكر الشماخي له رواية في السؤالات عن أبي عمار فيقول : ((روى أبو الفتوح عن أبي عمار رَحِمَهُ اللهُ أنه قال يجوز " أعوذ برضاك من سخطك " — أي يجوز الدعاء — وهذا مما يدل على أن الرضا والسخط صفتا فعل وكثيرا ما يروي في السؤالات عن أبي عمار))^(٢) . هؤلاء بعض من تلامذة أبي عمار الذين رووا عنه وهم من أهل جربة التونسية قدموا للدراسة على يديه بعد رجوعه من تونس ، ولولا حفظ السوفي لرواياتهم التي ذكرها في السؤالات لما علمنا عن صلتهم به لأن السير الإباضية لم تذكر تلاميذه إلا الشماخي استنادا على أبي عثمان.

أبو عثمان : ((روى أبو الفتوح عن أبي عمار رَحِمَهُ اللهُ أنه قال يجوز " أعوذ برضاك من سخطك " — أي يجوز الدعاء — وهذا مما يدل على أن الرضا والسخط صفتا فعل وكثيرا ما يروي في السؤالات عن أبي عمار))^(٢) . هؤلاء بعض من تلامذة أبي عمار الذين رووا عنه وهم من أهل جربة التونسية قدموا للدراسة على يديه بعد رجوعه من تونس ، ولولا حفظ السوفي لرواياتهم التي ذكرها في السؤالات لما علمنا عن صلتهم به لأن السير الإباضية لم تذكر تلاميذه إلا الشماخي استنادا على أبي عثمان.

أبو عثمان : ((روى أبو الفتوح عن أبي عمار رَحِمَهُ اللهُ أنه قال يجوز " أعوذ برضاك من سخطك " — أي يجوز الدعاء — وهذا مما يدل على أن الرضا والسخط صفتا فعل وكثيرا ما يروي في السؤالات عن أبي عمار))^(٢) . هؤلاء بعض من تلامذة أبي عمار الذين رووا عنه وهم من أهل جربة التونسية قدموا للدراسة على يديه بعد رجوعه من تونس ، ولولا حفظ السوفي لرواياتهم التي ذكرها في السؤالات لما علمنا عن صلتهم به لأن السير الإباضية لم تذكر تلاميذه إلا الشماخي استنادا على أبي عثمان.

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٠.
(٢) المصدر السابق والصفحة.

المبحث الرابع

علمه

— المطلب الأول : أبو عمار موهبة فطرية

— المطلب الثاني : الدولة الموحدية وفكر أبي عمار

— المطلب الثالث : آراؤه وفتاويه

— المطلب الرابع : مؤلفاته

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٠.
(٢) المصدر السابق والصفحة.

المطلب الأول : أبو عمار موهبة فطرية :

وهب الشيخ أبو عمار نفسه للعلم وقصر عليه جهده طوال حياته ، وارتحل في طلبه ، يقول الدرجيني في معرض حديثه عن علم أبي عمار : "خدم العلم دهرًا حتى وعاه ، وأوعى منه الأوعية ثم أخذ يفتيه ويعلمه فسالت منه الأودية في تصنيف كتاب أو تهذيب جواب أو تدريب متكلم أو إفادة متعلم"^(١).

ولقد ساعد على تفتق هذه الموهبة الفذة ما امتاز به أبو عمار من ذكاء وفطنة وإصرار على طلب العلم ، ورحلته إلى تونس تكشف أبعاد هذه الموهبة ، فلقد كان همه حين رحيله أن يتعد عن شواغل الأهل والتفرغ للتحصيل ، ويذكر الدرجيني أن الرسائل تتوالى على أبي عمار وهو في تونس تحمل أنباء هامة كانت كفيلة أن تثنيه عن عزمه لكن أبا عمار كان يحتفظ بهذه الرسائل لا يقرأ ما فيها حتى أنهى دراسته "فأخذ في قراءة الكتب الواردة من بلده كتابًا بعد كتاب فوجد في الكتاب الأول : إعلامًا بوفاة أحد أبويه وفي الثاني : وفاة الثاني ووجد شواغل لا علم له بها"^(٢).

كما أنه كان في حلقات العلم مثلاً للطلاب المجتهد الذي كان مثار إعجاب أساتذته وزملائه ، ويسوق الدرجيني شهادة لبعض طلاب نبطه^(٣) ممن درس مع أبي عمار في تونس فيقول : "حدثني بعض الطلبة النفطيين الذين قرأوا بتونس عن بعض

(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٥.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨٦.

(٣) نبطه : مدينة بإفريقية من أعمال الزاب الكبير وأهلها شراة إياضية وهبية وبين نبطه ومدينة توزر مرحلة وإلى مدينة نفزاوه مرحلة وبينها وبين قفصه مرحلتان من علمائها عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الصائغ 'معجم البلدان ج ٥ ص ٢٩٦.

أشياخه أنهم قالوا : أدركنا أشياخنا يذكرون طالباً من أهل وارجلان قرأ معهم على شيخهم إذ ذاك قالوا : أدركناهم يتعجبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه وسخائه ودلالة نفسه قالوا : ولم ير مثله من العرب ولا من البربر"^(١) فرد عليهم الدرجيني أن هذا الطالب هو أبو عمار عبد الكافي^(٢).

(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٨٦.

المطلب الثاني : الدولة الموحدية وفكر أبي عمار :

وبجانب الاستعداد الفطري لدى أبي عمار كان لأحداث عصره أثر كبير في بلورة اتجاهه الفكري والمتبع لمؤلفاته يرى أن جل اهتمامه بعلم الكلام مع ولوجه لكل فن فهو متكلم وفقه ومؤرخ شهير ، إلا أن علم الكلام برع فيه بلا منازع ولعل السبب يعود إلى تأثره بالدولة الموحدية التي جاءت على أنقاض المرابطية وشتان بين الدولتين فالمرابطية تدم الكلام وتنبد المتكلمين وتحارب المنهج التأويلي وتعتبره خروجاً عن منهاج السلف بل تعدت القول إلى الفعل فطاردت المتكلمين وأحرقت كتبهم، ولذلك ذمهم الإمام الغزالي بقوله : "ولست أقول : إن اسم الفقه لم يكن متناوياً للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن بطريق العموم والشمول .. وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية فيعد بذلك من فحول العلماء من جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره"^(١).

بينما نجد الدولة الموحدية تنادي بإحياء السنة وإماتة البدع والغوص في فروع العلوم الإسلامية وأهمها علم الكلام فالدعوة الموحدية انبنت على أساس تقدم علم التوحيد على سائر العلوم لأن معرفة الخالق أول ما ينبغي على المسلم إدراكه ولذلك ألف ابن تومرت كتابه "أعز ما يطلب" وترجمه إلى اللغة البربرية ليسهل على أتباعه معرفة علم التوحيد والمبادئ الموحدية التي جعلها قواعد عمله في مرحلته القادمة كما اهتمت الدولة الموحدية باللغة العربية وتدريسها منذ قيامها ولذلك نجد أبا عمار يسافر إلى تونس ليتعلم اللغة العربية وآدابها استجابة لنداء الموحدين.

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ١ ص ٥٣ تحقيق الشحات الطحان ، عبد الله المنشاوي ط. دار الحرم للتراث - القاهرة سنة ١٩٩٦م.

وتظهر تلك الملكة اللغوية في كتاباته فالمتمعن في كتابه (شرح الجهالات) يجده يعتمد على التحليل اللغوي للكلمة في غالب أبوابه وعلى سبيل المثال عند حديثه عن الرؤية يقول : "والنظر في لغة الناس يتصرف على وجوه: أحدها هو النظر والثاني على معنى الانتظار ، والثالث على معنى الرحمة ، والرابع على معنى الاختبار ، والخامس ، على معنى القضاء لذلك يقال للقاضي : ناظر"^(١).

كما يلجأ أحياناً إلى تصريفها فيقول : "والإله هو اسم المعبود ﷻ والإله والله واحد ، إنما حذفوا الهمزة وأدغموا إحدى اللامين في الأخرى ، فقالوا : الله"^(٢) ولقد جمع ابن تومرت - مؤسس الدولة الموحدية - في منهجه بين المذهب الأشعري في أكثر المسائل ومذهب المعتزلة في الصفات ومذهب الشيعة في القول بالعصمة والمهدوية^(٣).

ولقد تأثر أبو عمار بهذا الفكر المزدوج في نهجه التألفي فجمع في تأليفه بين فكره الإباضي وأسلوب غيره من المؤلفين ولذلك عقد عمار طالي مقارنة بين الموحز لأبي عمار والتمهيد للباقلاني الأشعري^(٤) فيقول : "وإذا قارنا هذا الكتاب - الموحز - بكتاب التمهيد لأبي بكر الباقلاني فإننا لا محالة نجد تشابهاً واضحاً

(١) شرح الرد على الجهالات ت أبو عمار عبد الكافي تحقيق الطاهر بن عامر ص ٩٤ وهي رسالة لنيل درجة الدكتوراه بالجامعة التونسية - كلية الزيتونية للشرعة وأصول الدين سنة ١٩٨٥م.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٥.

(٣) تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية ت/ يحيى هويدي ج ١ ص ٢٢٩ بتصرف.

(٤) هو محمد بن الطيب الباقلاني من كبار متكلمي الأشاعرة ومن رؤساء المذهب المالكي ولد بالبصرة في الربع الثاني من القرن الرابع الهجري وتوفي في ٢٣ ذي القعدة سنة ٤٠٣هـ ببغداد من تأليفه التمهيد في الرد على الملاحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة خالف فيه الأشاعرة في الكثير من المسائل : انظر التمهيد تعليق محمود الخضيرى - محمد عبد الهادي ص ١- وما بعدها ط. دار الفكر العربي.

بينهما في المنهج والأسلوب"^(١). ولكن هذا الاتفاق في الأسلوب لا يعني الاتفاق في الفكر فأبو عمار في معرض حديثه عن صفات الله - تعالى - انتقد الباقلاني ورد عليه وعلى أصحابه في مسألة الصفات وعلى قولهم بتغايرها وتعدد معانيها.

يقول أبو عمار: "وتمثل هذا من الغلط، غلط أبو بكر الأشعري وأصحابه من صفات الله لما قالوا فيها بالتغاير والعدد"^(٢).

ولترعته الإباضية أيضاً تأثير على تقاربه من الفكر الاعتزالي للتقارب الكبير بين منهج المعتزلة والإباضية إذ لم يقتصر على الصفات كما هو الحال عند الموحدين وإنما امتد ليشمل جوانب عقدية أخرى اتحدت الإباضية مع المعتزلة في فهمها على قول واحد^(٣).

كما تأثر أبو عمار بالمدارس الجدلية التي انتشرت في كافة أنحاء المغرب العربي في العهد الموحد وظهر ذلك في مؤلفاته التي اتسمت بالأسلوب الجدلي والفلسفي "فسلك منهج القسمة المنطقية الذي اتخذ طريقة له في أغلب المسائل العقلية التي عاجلها في كتابه (الموجز)"^(٤).

وهو كثير ما يلجأ إلى التحليل العقلي لقضايا العقيدة المختلف فيها بأسلوب السؤال والجواب كما في الرؤية حيث يقول: "فإن قال قائل: ما أنكرتم أن يكون الله ﷻ يرى في الدار الآخرة؟ قيل: أنكرنا ذلك من قبل أنه لا يعدو الأمر في ذلك من وجهين: إما أن يكون الله ﷻ تغير عن صفته وتحول في ذاته حتى يكون

مرتباً في الدنيا، فإن كان ذلك كذلك كان الله ﷻ متحولاً في صفته إلى غيرها من صفات خلقه، أو يكون البصر هو الذي تغير عن معنى البصر إلى غير البصر فإذا كان كذلك فإن الرؤية لا تكون ولا تجوز إلا بالبصر فإذا تغير البصر عن معناه وزال عن صفته إلى صفة غير البصر بطلت الرؤية واستحالت"^(١).

ويعود الفضل في هذا التوجه الفلسفي العقلي لدى أبي عمار إلى الدولة الموحدية التي شجعت على دراستها في عهد عبد المؤمن بن علي، ومن بعده ولده يوسف، وإجمالاً فإن الدولة الموحدية كان لها تأثير كبير في ظهور هذه الشخصية الفذة وبلورة فكره وظهور الرعة الكلامية لديه.

ولذلك يقول الجعبري: "فهذا أبو عمار الذي عرف البيئة التونسية في تونس زمن الموحدين بما فيها من تيارات يقف مدافعاً عن الإسلام فيرد على الفلسفات القديمة، وأهل الكتاب في الجزء الأول، ثم في الجزء الثاني من موجزه يقرر أصول العقيدة الإباضية ويدحض حجج الفرق الأخرى ببراهين عقلية ونقلية في لغة كلامية جدلية متماسكة"^(٢).

^(١) كتاب شرح الرد على الجهالات ت. أبو عمار عبد الكافي ص ٧٩.
^(٢) البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت/ فرحات الجعبري ص ١٢٠.

^(١) آراء الخوارج الكلامية ج ٢ ص ٢٣١.

^(٢) الموجز ج ٢ ص ٢٣٠ تحقيق عمار طالبي.

^(٣) انظر المدرسة الجدلية الإباضية وأثرها العلمي بوارجلان ص ٦٢ من هذا البحث.

^(٤) آراء الخوارج الكلامية ج ٢ ص ٢٢٧.

المطلب الثالث : آراؤه وفتاويه :

لقد كان أبو عمار مرجعا للإباضية في علم الكلام والمنطق والجدل بما امتاز به من نهج رفيع في الإقناع ، ورصانة في الأسلوب وجزالة في المعنى وإيجاز في الحديث إلا أنه كان لا يميل إلى القول في الغالب ويركن إلى الفعل لاهتمامه بعلم الباطن عن علوم اللسان ، وإنما يلجأ إلى القول " عندما يقتضي الموقف تقرير حجة لدحض شبهة أو اثبات سنة لمحاربة بدعة" (١).

ولذلك فإن مجمل آرائه كانت في أحداث عصره أو رداً على سؤال سائل ، وعصر أبي عمار كما عرفنا مملوء بالقلق والاضطرابات وكثرة الحروب ولذلك وصفه الوسياني بقوله : " هذا زمان السكوت وأكل القوت ولزوم البيوت حتى تموت" (٢).

لكن أبا عمار ليس من أولئك الذين يرضون بالسكوت أمام هذه البدع والفوضى ، ولذلك نجده عندما تعرض عليه مشاكل الناس يسير أغوار نفوسهم أولاً فيساعده ذلك على حل المشاكل بعدل وحق فهو يقول في الفتن التي تحصل بين الدويلات في المغرب والمناوشات بين القبائل : " إن الأحب إلى أن يصطلحوا فإن لم يفعلوا فالأحب إلى ألا تغلب فئة فتة فإن من أحب أن تغلب إحداها الأخرى فقد دخل في الفتنة ولزمه ما لزم أهل تلك الفتنة وكأن سيفه يقطر دماً" (٣).

وكان يقول أيضاً : " السلامة عندي أن يكونوا من البراءة سواء لا يرجح قلبي

إلى إحدى الطائفتين فإنه متى رجح أتم" (١).

ويثور أبو عمار على مبدأ السلب والنهب الذي احترفته الأعراب بالمغرب فيصدر فتواه بحرمة ما في أيدي الأعراب بالمغرب فلا يحل الشراء منهم للريية المتحققة مما عندهم وأنها أموال حرام غصبوها بغير وجه حق ، فلقد أورد الدرجيني في طبقاته سؤالا وجَّهه أبو يعقوب الوارجلاني إلى أبي عمار حول ما في أيدي الأعراب بالمغرب والأعراب بمكة من حيث الحرمة لاتفاقهما في المنهج فأعراب المغرب يسلبون أهلها ، وأعراب مكة يسلبون الحجيج.

فأجابه أبو عمار بقوله : " هذه جزيرتهم — أي مكة — الأقعد فيما بأيديهم والأغلب عليه الحلال وتلك جزيرة البربر إنهم فيها غارة وكل ما بأيدي الغارة رية إلا من أبصر شيئاً عياناً فلا يحل له الدنو منه في بدو ولا حضر" (٢). فإنهم في بلادنا غارة ونحن البربر في جزيرتنا كالعرب في جزيرتهم" (٣).

كما كان أبو عمار مقصد الناس في الفتوى تأتيه الرسائل ممن يستفتيه في العقيدة وغيرها من العلوم ويورد الدرجيني الكثير من الرسائل وردوده عليها في طبقاته ومنها رسالة بعث بها عبد الرحمن الكرخي إلى شيوخ وارجلان يسألهم في اليقين والقدر وإعلام الساعة وغيرها فاتفقوا أن يكلوا أمر الإجابة إلى أبي عمار وكان من جملة ما سأل : " ما الحكم فيمن قال إن الله ليس بيكش" (٤) ؟

فأجابه أبو عمار : إن كان بربرياً أو ممن يعرف اللسان البربري فهو كمن قال

(١) الإباضية في موكب التاريخ مج ٣ ص ٢٢١.

(٢) أي من أبصر بعينه نهب أعراب مكة الحجيج فلا يحل له الشراء ممن ينهب أما سوى ذلك فلا بأس.

(٣) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩٠ ، سير الشماخي ج ٢ ص ١٠٤.

(٤) يكش : يعني عظيم إلا أن الوسياني في سيره ذكرها بلفظ "أيش" (سير الوسياني ص ٢٦٧ مخطوط).

(١) الإباضية في موكب التاريخ مج ٣ ص ٢١٧.

(٢) سير الوسياني ص ٩١ مخطوط.

(٣) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩١ ، سير الشماخي ج ٢ ص ١٠٤.

"إن الله ليس بآله ومن قال ذلك فهو مشرك"^(١).

هذا ولو استعرضنا كافة الرسائل التي وردت إلى أبي عمار لما وسعنا المقام ولكني نكتفي بما أوردها دليلاً على مكانته العلمية.

المطلب الرابع : مؤلفاته :

إن التأليف رسالة كل عالم مخلص ، ولذلك فإن أبا عمار بعد عودته من تونس أكبَّ على تأليف الكتب المختلفة في العقيدة والفقه والتاريخ ، وترك ثروة علمية أثرى بها المكتبة الإسلامية وظلت كما قال الجعيري : "عمدته إلى يومنا هذا فعلها شرحوا وحشوا واختصروا"^(٢).

ومن أهم مؤلفاته في العلوم الآتية :

— في العقيدة :

١- كتاب "الموجز في تحصيل السؤالات وتخليص المقال في الرد على أهل الخلاف" وصفه الدرجيني فقال : "وهو الذي أزرى بموجزه على الماضين وأتعب الحاضرين والآتين ، فإنه رتب مقدماته أرتب تقدم ، وقوم فصوله أحسن تقويم وقسم الفرق أئين تقسيم ألفاظ عذبة وقصد مستقيم"^(٣) . احتوى جزؤه الأول : على إثبات عقيدة التوحيد ورده على الملاحدة والمخالفين لملة الإسلام من الفلاسفة

^(١) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٨-٤٨٩.

^(٢) البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ت.د/ فرحات الجعيري ص ١١٨.

^(٣) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٥.

واليهود والنصارى ونقض مذهب الجهمية والمجسمة وتكلم على صفات الله - تعالى - .

أما الجزء الثاني فرد فيه على المخالفين من أهل القبلة في قضايا العقيدة المختلفة بعد أن قدم له بمقدمة في النظر وقوانينه السبعة وبعض التعريفات الفلسفية والعقدية.

ولقد قام بتحقيقه الدكتور/ عمار طالبي من الجزائر ودرسته تحت عنوان "آراء الخوارج الكلامية" والذي طبعته الشركة الوطنية بالجزائر في جزأين سنة ١٩٧٨م.

كما قام بتحقيقه د. عبد الرحمن عميره من جمهورية مصر العربية في جزأين أيضاً بمجلد واحد من الحجم المتوسط وطبعته دار الجيل ببيروت سنة ١٩٩٠م.

٢- كتاب "شرح الرد على الجهالات" : وكتاب الجهالات ينسب إلى تيبغورين بن عيسى الملسوطي^(١) إلا أن أبا عمار يذكر أن الشيخ أبا إسماعيل البصير^(٢) زاد فيه مسألة الإنسان ومسألة الفرق بين الكفر والشرك فيقول : "وسمعت غير واحد من المشايخ يتحدثون إن مسألة

^(١) هو تيبغورين بن عيسى الملسوطي : من ملسوطه بأريغ سكن آجلو وهو من علماء النصف الأول من القرن السادس الهجري أخذ العلم عن أبي الربيع سليمان بن ي خلف المزاتي ت (٤٧١هـ) قال عنه الشماخي : ((من أعظم الناس قدرا ومن أكثرهم علما ومن أشدهم عملا) له كتاب أصول الدين غير الرد على الجهالات ذكره البرادي في رسالته تقييد كتب أصحابنا انظر (سير الشماخي ج ٢ ص ٩٦ ، رسالة في كتب الإباضية للبرادي ص ٦٧ تحقيق د/ محمد زينهم ، أحمد عبد التواب).

^(٢) هو أبو إسماعيل البصير إبراهيم بن ملال المزاتي شيخ عبادة وورع واجتهاد في معرفة ما فرض الله عليه الدرجيني من الطبقة التاسعة [٤٠٠-٤٥٠هـ] تتلمذ على يديه الشيخ أبو محمد ماكسن (انظر طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤١٢).

الإنسان زادها أبو إسماعيل البصير في الجهالات^(١) وحول مسألة الفرق بين الكفر والشرك يقول : "ويذكر والله أعلم أن هذه المسألة زائدة في كتاب الجهالات من الشيخ الذي هو أبو إسماعيل البصير"^(٢).

كما يذكر أبو عمار أن باب الدلائل زائد في الجهالات لكن لا يدري من ألفه يقول: "وبلغنا أن هذا الباب — باب الدلائل — ليس من الجهالات الأولى وإنما زيد في كتاب الجهالات ولا أعلم من زاده فيها وقد ذكر عن غير واحد من المشايخ وليس عندي في ذلك صحة صحيحة"^(٣).

ويعد كتاب الجهالات من المراجع المهمة عند الإباضية في القرن الخامس الهجري يدل على ذلك ما نقله الوسياني على لسان أبي محمد ويسلان بن أبي صالح البراسيني من أهل جربة في معرض حديثه عنه قال : "ندمت على ترك ثلاثة : زيارة أهل الدعوة — أهل السهل المغربية — والثانية : قراءة الجهالات ، والثالثة : مجالس أبي عمران بن أبي زكريا لأنه إنما أخذ العلم عن والده أبي صالح"^(٤).

والكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة في العقيدة في الدلائل والقضاء أو الفروقات وفي صفات الله - تعالى - وهي من المسائل المكررة لما في الموجز — وفي التوحيد بيد أن الكتاب يرسم منهج أبي عمار في التأليف فلقد جمع بين دقة الأسلوب ورصانة التعبير وعمق المعرفة في العلوم الإسلامية والعربية فكان حين يلجأ إلى التفريق بين مصطلحين يستند إلى اللغة وتارة إلى الآيات كما يبرز فيه المقدرة

(١) شرح الجهالات ص ١٢٨ ، رسالة في كتب الإباضية ص ٦٩.

(٢) شرح الجهالات ص ١٣٦.

(٣) شرح الجهالات ص ٤٠٤.

(٤) سير الوسياني ص ٤٣ مخطوط ، سير الشماخي ج ٢ ص ٥٤.

الجدلية في الإقناع وهكذا .

حقق الكتاب الباحث/ الطاهر بن عامر في شكل رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه بالجامعة التونسية - قسم أصول الدين سنة ١٩٨٥ م - بيد أن الكتاب يحتاج إلى زيادة تمحيص ، وخاصة أن الأبواب غير مرتبة على المنهج العلمي فلقد اقتصر الباحث على تبويب المؤلف كما أنه في الغالب لم يخرج أحاديثه وعلى كل فله الشكر على إخراجه إلى النور.

— في الفقه :

له في علم الفقه كتاب سماه "كتاب في اختصار الموارث والفرائض" وهي رسالة في الميراث قسمها إلى أبواب بدأت بمقدمة ثم باب في فرائض الصلب وهكذا حتى انتهى إلى تصحيح المسائل وضرب الأمثلة لتعليم الناشئة هذا الفن.

قام بطبعه الشيخ محمد بن يوسف الباروني طبعة حجرية بالمطبعة البارونية في جدرية مصر ، والنسخة التي وصلتني من المغرب لم تحدد سنة طباعتها وألحقت بها رسائل أخرى لمجموعة من المؤلفين.

— في التاريخ :

١ - سير العزابة :

يشير الدرجيني إلى أن أبا عمار له تأليف في سير العزابة اشتمل على سير المشايخ الإباضية وقسمها إلى أقسام حسب التاريخ الهجري كل نصف قرن جيل ابتداء من المائة الأولى وحتى منتصف المائة الخامسة وهي نهاية سيرة وما بعدها ،

أكملته الدرجيني على الوتيرة نفسها في طبقاته فزاد النصف الثاني من القرن السادس الهجري وهم طبقة شيوخه ، ووصلت بمحمل طبقات الدرجيني اثنتي عشر طبقة فالإحدى عشرة طبقة هي سير أبي عمار ، وأما الباقي فلم يكمله الشيخ بسبب وفاته.

يقول الدرجيني : "هذا الفصل نقلته مما فعله الشيخ أبو عمار عبد الكافي رحمته الله وذلك أنه لما رأى العزابة يسندون أمر دينهم واحدا عن واحد رأى من حسن نظره أن يكون ذلك جملة عن جملة ... فرتبها - رحمة الله - على المبين من سني الهجرة ... وذكر الخمسين من كل مائة" (١).

وعندما انتهى إلى الخمسين الأولى من المئة الخامسة قال : "فهذا الترتيب رتبته الشيخ أبو عمار إلا أنه لم يذكر الطبقة التي فيها شيوخه ومعاصروه .. ورأيت أن أذكر جماعة الأشياخ الذين أخذوا عن الجماعة التي انتهى إليها ترتيب الشيخ أبي عمار وأضمتهم إلى الخمسين من المائة التي نحن فيها" (٢).

وهذا الكتاب لم أعثر عليه إلا أن الدرجيني قد كفانا مؤنة البحث لإخراجه كتاب الطبقات إلى النور الذي هو امتداد لسير العزابة.

١- سير أبي عمار : سمي بهذا الاسم إلا أن الصحيح أنه سير الحلقة كما يتضح ذلك من موضوعه ، وهو من وضع تلاميذ الشيخ أبي عمار ، أما موضوعه فهو روايات لتلاميذ أبي عمار عن شيخهم في نسبة الدين ، وذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم الإباضية في المغرب والمشرق ابتداء من الصحابة وحتى زمن أبي عمار تلاه تعريف معنى العزابة عند أبي عمار وتقسيمه للعزابة

(١) طبقات الدرجيني ج ١ ص ٦.

(٢) سير أبي عمار تحقيق مسعود مزهودي ص ٤ ط. مكتبة الضامري من مطبعة عُمان سنة ١٩٩٦ م.

ووظائف مجلس العزابة وشروط العزابي ، ويدل على أن الكتاب من روايات تلاميذه عنه ما ذكره المحقق في مقدمة الكتاب حيث قال : "ومن أجل الحفاظ على سير السلف الصالح فقد ترك لنا تلامذة أبي عمار سير شيخهم لتبقى قدوة للأجيال اللاحقة".

وأنهم يلجؤون إلى ذكر قول شيخهم أبي عمار في كثير من الأحيان فيقولون : "قال الشيخ - رحمته الله - " (١).

ولقد عني بتحقيقه الباحث/ مسعود مزهودي من الجزائر وسماه "سير أبي عمار" وقامت مكتبة الضامري للنشر والتوزيع بسلطنة عُمان بطبعته سنة ١٩٩٦ م في ورقات من الحجم المتوسط.

كُتِبَةُ المفقودة : كما ينسب إلى أبي عمار كتاب "الاستطاعة" في العقيدة (٢) وهو مفقود أشار إليه في نهاية موجزه فقال : "وأما القول في الاستطاعة فقد ينبغي أن يفرد له ولم ينحو الاستطاعة من مسائل العون والأمر والإرادة كتاب على حال إن شاء الله" (٣).

ولذلك يقول عمار طالي : "أما كتابه الاستطاعة فلا أعرف أنه موجود أو غير موجود وأغلب الظن أنه مفقود" (٤).

ويُنسَبُ إلى أبي عمار كتاب آخر في الفروع وهو مفقود أيضا ولعله الذي قصده البرادي في معرض حديثه عن مؤلفات أبي عمار بقوله : "ويذكرون كتابا في

(١) المصدر السابق ص ٢٠.

(٢) يقول الشماخي : "ألف الموجز في الرد على كل من خالف الحق في جزأين وشرح الجهالات في سفر وكتاب الاستطاعة وله غيرها" سير الشماخي ج ٢ ص ١٠٤.

(٣) الموجز لأبي عمار تحقيق د/ عبد الرحمن عميره ص ٢١٤.

(٤) آراء الخوارج الكلامية ت. عمار طالي ج ١ ص ٢٢٠.

الفروع من تأليفه ولم أقف عليه" (١).

هذه هي مجمل مؤلفات الشيخ أبي عمار والتي دلت على غزارة علمه وسعة أفقه كما أنها أعطت انطبعا عن أخلاقه وسجاياه التي نتحدث عنها في الصفحات القادمة.

(١) رسالة في كتب الإباضية ص ٧٠.

134

١- امبحث الخامس

أخلاقه وسجاياه

— المطلب الأول : أخلاقه

— المطلب الثاني : كراماته

135

المطلب الأول : أخلاقه :

إن شأن من أوتي حظاً من العلم وبسطة منه أن يكون متصفاً بصفات طيبة ومتخلقاً بأخلاق رفيعة " فأول العلم - كما قيل - بطر ، وأوسطه حيره ، وآخره تواضع ^(١) " إلا أن أبا عمار كانت الأخلاق الحميدة سجايه وهو في أول مرحلة من مراحل ، فلقد كان باراً بأساتذته كريماً معهم يورد الدرجيني المثال فيذكر أن أبا عمار كان يأتيه كل عام ألف دينار من والده وهو يدرس بتونس فيقسمها نصفين "فيدفع النصف إلى شيخه ويصرف النصف في نفقته وكسوته وشراء ما يحتاجه من الكتب" ^(٢) ، مما جعل زملاءه في الدراسة يتعجبون من "ورعة وسخائه ودلالة نفسه وسعة خلقه" ^(٣) .

وكان - رَحِمَهُ اللهُ - ورعاً تقياً ، فمع ما أُوتِيَ من سعة في الرزق إلا أنه كان يرضى أغنامه بنفسه في بادية بني مصعب ^(٤) لأنه كان حريصاً على العمل لا يركن إلى الكسل ولهذا يصفه الدرجيني بقوله : "وأما الورع والسخاء فهما أقل صفات خَلَالِه" ^(٥) .

ومع ما أُوتي - رَحِمَهُ اللهُ - من قدرات جدلية أكسبته فن الحوار إلا أنه كان عَفَّ اللسان لا يميل إلى المراء والمهاترة وإنما كان يناقش بالبرهان والدليل من الكتاب والسنة ولذلك يقول علي يحيى معمر : "كان أبو عمار بالإضافة إلى غوصه

^(١) حكمة مأثورة حفظتها وأنا صغير لا أدرى قائلها.

^(٢) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٦.

^(٣) نفس المصدر السابق ص ٤٨٦.

^(٤) يقول الدرجيني : "خرج أبو عمار في سنة من السنين في فصل الربيع إلى بادية بني مصعب بغنمه .."

وهذا يدل على رعيه (طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٧).

^(٥) المصدر السابق ص ٤٨٥.

في بحار علم الكلام من أكثر الناس حرصاً على العمل وبعداً عن المهاترة والشغب وهروباً من المراء والجدال واشتغالا بالاهتداء والافتداء وإتباع السلف" ^(١) .

إن هذه الصفات التي اتصف بها أبو عمار أكسبته محبة الناس في عصره ونال عن طريقها إحترامهم فقدموه على غيره من العلماء ، فكان قدوتهم الحسنة وأسوتهم الطيبة ما فتئوا يتنسمون عبير سيرته في كل مَحْفَلٍ ، ويجري ذكره على ألسنة الأقلام مع جريان مداها.

المطلب الثاني : كراماته :

عُرِفَتِ الكرامة بأنها : أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة يظهر على يد عبدٍ ظاهرٍ الصلاح ملتزمٍ لمتابعة نبي كلف شريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ^(٢) .

وتحققها أمرٌ ممكنٌ كما أشار إلى ذلك صاحب العقيدة الطحاوية بقوله : "إن الدين إذا صح علماً وعملاً فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه" ^(٣) .

واشتهر الإباضية بالمغرب بالصلاح والتقوى وشدة التمسك بكتاب الله - تعالى - وسنة نبيه - ﷺ - فكثرت فيهم العارفون ومستجابو الدعاء ، وطبقات الدرجيني وسير الشماخي تضم بين دفتيهما الأمثلة المختلفة ، والصور

^(١) الإباضية في موكب التاريخ مج ٣ ص ٣٢٠.

^(٢) حاشية الأمير على شرح عبد السلام على جوهر التوحيد ص ١٣٣ ط. مصطفى البابي الحلبي - القاهرة سنة ١٩٤٨م.

^(٣) شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي ص ٥٦٢ ط. المكتب الإسلامي - بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

المتعددة لكرامات الإباضية بالمغرب الأدنى والأوسط والأقصى مما حدا بالشماخي أن يُفرد فصلا في سيره لأهل الكرامات يقول : "فصل أذكر فيه بعض أهل الكرامات"^(١).

وأُسرة الشيخ أبي عمار ضمت بين جنباتها شيوخا عارفين وأولياء مخلصين اشتهروا بالكرامات وخوارق العادات ، وكأنهم توارثوها يقول الشماخي عن والد أبي عمار : "وأما أبوه يوسف بن إسماعيل فقد ذُكر في جملة الأشياء المتقين ومن المخلصين المستجابين ومن كراماته أن نظر إلى خاله يوسف بن إبراهيم - قاضي وارجلان وفقهها - في شدة البرد وعليه حولية^(٢) وهو شيخ وعنده كساء في مزود^(٣) عجيب فأخذها وأعطاهما لخاله وترك المزود منفوخا خوفا من أمه زمانا فأراد نزع المزود فإذا كساء نجيب فبادر إلى خاله فإذا الكساء عليه وبينهما بون بعيد^(٤)".

كما تروى عن جده كرامات على لسان والد أبي عمار ذكرها الشماخي في سيره^(٥). فلا غرو أن يرث أبو عمار حلية العارفين ، وكرامات الصالحين مع ما أثر عنه من صفات حميدة وخصال طيبة ، ومنها قوله : "ثلاثة من أخلاق البدلاء سخاوة النفوس ، وسلامة الصدور ، والبراءة من الدنيا"^(٦).

^(١) سير الشماخي ج ٢ ص ١٥٧.

^(٢) حولية : وهو ما يلف به الجسد من اللباس الخفيف (مختار الصحاح للإمام الرازي تحقيق/ محمود خاطر ط. دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٦م.

^(٣) مزود : ما يجعل فيه الزاد (مختار الصحاح للإمام الرازي تحقيق/ محمود خاطر ط. دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٦م.

^(٤) سير الشماخي ج ٢ ص ١٤٨.

^(٥) أنظر المصدر السابق ص ١٤٨.

^(٦) سير الشماخي ج ٢ ص ٨٨.

ويذكر الدرجيني أن من كراماته أنه خرج يوما يرعى غنمه في بادية بني مصعب - وادي ميزاب - فتوغل في البرية حتى قرب جبال بني راشد^(١) فقال لأهله يوما : "اصنعوا عشاء عمار - يعني ابنه - وقد خلفه " بوارجلان " فبات عليهم عمار^(٢) - أي ما كاد يأتي وقت المبيت إلا وعمار يتناول معهم العشاء - ومنها رؤياه لإبراهيم عليه السلام يترل إلى وارجلان وفسرها بموت شيخه أبي زكريا فمات بعد أشهر^(٣).

يقول الدرجيني : "وهذه الحكاية - أي رؤياه - من مناقب أبي زكريا إلا أن لأبي عمار فيها صدق الرؤيا وإصابة التأويل"^(٤).

ونحن نعلم أن من أقسام الوحي الرؤى ، ولذلك يقول الدكتور الفيومي : "من أقسام الوحي الإلهام في اليقظة والرؤى في المنام ، وهذا متفق عليه والواقع يوجب عدم الاختلاف"^(٥).

ويقول : قد يقع الإنسان في ضيق ويظن أنه أحيط به فينام فيرى رؤيا صادقة تنير له الطريق السليم بينما غابت آلات المعرفة : غابت الحواس وستر العقل في هذه يرى ملكوت السماوات كما تعجز عنه آلات المعرفة الظاهرة"^(٦).

^(١) جبال بني راشد : مرعى في وادي ميزاب يرعى أهل وارجلان "وادي ميزاب" أغنامهم فيه.

^(٢) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٨٧ ، سير الشماخي ج ٢ ص ١٠٤.

^(٣) أنظر ص ١١١ من هذا البحث.

^(٤) طبقات الدرجيني ج ٢ ص ٤٩٠.

^(٥) مع البوصيري وابن عطاء الله د/ محمد إبراهيم الفيومي ص ٦٠ ، الناشر مكتبة الإنجلو المصرية سنة ١٩٨٣م.

^(٦) نفس المرجع السابق ص ٦٠.

خاتمة

وبعد هذا التطواف في جوانب عصر وشخصية هذا الفذ الجيهذ الذي أسهم في حركة التحول الفكري والثقافي في القرن السادس الهجري وكان له الأثر البارز في التطور الحضاري الإسلامي عقيدة ولغة وتاريخاً كما كان له الأثر الأبلغ في ترسيخ جذور هذا المذهب في شمال إفريقيا - فإن هذه الشخصية - وإن تناولناها بشيء من التفصيل لم يسبقنا إليه أحد إلا أن هذه الدراسة تفتح الباب على مصراعيه ليتوالى الباحثون في تحقيق واستقصاء ما خفي من جوانب حياة العلامة أبي عمار عبد الكافي التناوتي الوارجلاني والإجابة على الكثير من التساؤلات التي أثارناها في هذا البحث ، وذلك عندما تتكشف مصادر أخرى أعمق تفصيلاً لعصره وحياته فهي دعوة مفتوحة لمزيد من الدراسة حول كافة جوانب هذه الشخصية يتناسب مع سعة أفقها لعلنا نخلص من تلك الدراسات والمحاولات إلى ظهور المظمور من مؤلفاته القيمة.

إن أبا عمار عبد الكافي استطاع أن يترجم مبادئ هذا المذهب من خلال ممارساته ومؤلفاته مما يعطي الانطباع الحسن لتوجه الإباضية في تلك الفترة الحاسمة من التاريخ والتي يمكن وصفها بأنها مرحلة التحول من التأثير بالصراع الذي خلفته الانقسامات الأولى في صفوف المسلمين إلى مرحلة الانفتاح على المذاهب الأخرى تأثيراً وتأثراً وخاصة بعدما تلاها من استقرار سياسي كان له أثره البارز في ظهور مؤلفات في مختلف مناحي الفكر الإسلامي كانت ومازالت إرثاً حضارياً ومرجعاً للباحثين والدارسين.

واليوم مازلنا نتنسم عبير هذا الموروث الحضاري الإباضي إذ العلاقة بين الماضي والحاضر موصولة أبداً فالخيط الرفيع الذي يصل بينهما هي تلك المحاولات المتكررة لتفضي الغبار عما اندرس من رسم حضارتنا الضاربة في أعماق التاريخ والذي يقع على عاتق كل طالب علم عبر الأجيال المتعاقبة.

والله الموفق ،،،

قائمة المصادر والمراجع

- ١- ابن أبي العز الحنفي ، العقيدة الطحاوية ، طبع بيروت ١٣٩٩ هـ .
- ٢- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ط. مؤسسة جمال للطباعة والنشر-بيروت .
- ٣- ابن سلام ، الإسلام وتاريخه من وجهة نظر الإباضية ، تحقيق : ف شارتر ، ط . إقرأ - بيروت ١٩٨٥ .
- ٤- أبو اسحاق اطفيش ، الفرق بين الإباضية والخوارج ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان .
- ٥- أبو الربيع سلمان الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان .
- ٦- أبو الربيع سليمان الباروني ، سير الوسياني ، مخطوط .
- ٧- أبو العباس الدرجيني ، طبقات المشائخ ، تحقيق . إبراهيم طلاي .
- ٨- أبو القاسم البراري ، رسالة تقييد كتب أصحابنا ، تحقيق . محمد زينهم وأحمد عبدالتواب ، ط . دار الفضيلة - القاهرة ١٩٩٤ ، دراسة في تاريخ الإباضية وعقيدتها .
- ٩- أبو بكر الباقلاقي ، التمهيد ، تعليق . محمود الخضيري ، محمد عبدالهادي ، ط . دار الفكر العربي - بيروت .
- ١٠- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، تحقيق . الشحات الطحان ، عبد الله المنشاوي ، ط . دار الحرم للتراث - القاهرة ١٩٩٦ .
- ١١- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر ، كتاب السير وأخبار الأئمة ، تحقيق . عبد الرحمن أيوب ، ط . الدار التونسية للنشر ١٩٨٥ .
- ١٢- أبو سعيد الكدومي ، الاستقامة ، تحقيق . محمد أبو الحسن ، ط . وزارة التراث - سلطنة عمان ١٩٨٥ م .

- ١٣- أبو عبد الله الكندي ، بيان الشرع ، ط . وزارة التراث - سلطنة عمان .
- ١٤- أبو عمار عبدالكافي ، شرح الرد على الجهالات ، تحقيق . الطاهر بن عامر - رسالة لنيل درجة الدكتوراة - جامعة تونس - كلية الزيتونة ١٩٨٥ ، الموجز . تحقيق . عبد الرحمن عميرة ، ط . دار الجليل - بيروت ١٩٩٠ م .
- ١٥- أبو يعقوب الوارجلاني ، العدل والإنصاف (مخطوط) ، العدل والإنصاف ، ط . وزارة التراث - سلطنة عمان ١٩٨٤ .
- ١٦- أحمد الياس ، الإباضية في المغرب العربي ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان .
- ١٧- أحمد بن سعيد الشماخي ، سير الشماخي ، ط . وزارة التراث - سلطنة عمان ١٩٨٧ .
- ١٨- أحمد فرصوص ، أبو اليقظان إبراهيم كما عرفته ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان ١٩٩٢ .
- ١٩- اسماعيل صالح بن عمر ، نظام العزابة ودوره في الحياة الاجتماعية والثقافية بوادي ميزاب ، (رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي الوسيط) معهد التاريخ - جامعة الجزائر ١٩٨٧ .
- ٢٠- الرازي ، مختار الصحاح ، تحقيق . محمود خاطر - ط . دار الكتب المصرية ١٩٧٦ م .
- ٢١- الربيع بن حبيب ، مسند الإمام الربيع ، ط . المطابع الذهبية - سلطنة عمان ١٩٩٣ م .
- ٢٢- السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ط . مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر - الاسكندرية .

- ٢٣- بالحاج قشار ، اللمعة المضئية في تاريخ الاباضية ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان ١٩٩٠ م .
- ٢٤- جميعه التراث ، معجم أعلام الإباضية ، ط . جميعه التراث - الجزائر " نسخة تجريبية " .
- ٢٥- خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ط . دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٥ م .
- ٢٦- رجب محمد عبدالحليم ، الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان .
- ٢٧- رشيد الناصورة ، المغرب الكبير ١ / ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ط . دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨١ م .
- ٢٨- زاهر رياض ، شمال إفريقيا في العصور الوسطى ، ط . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١ م .
- ٢٩- سالم بن حمد الحارثي ، العقود الفضية في الأصول الإباضية .
- ٣٠- سليمان بن عبدالله الباروني ، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، ط . دار بوسلامة للطباعة والنشر - تونس .
- ٣١- صالح باجية ، الإباضية بالجريد ، ط . دار بوسلامة للطباعة والنشر - تونس .
- ٣٢- عبد الحميد يونس ، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، ط . دار المعرفة - القاهرة ١٩٦٨ م .
- ٣٣- عبدالله علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد المؤمن بن علي ، ط . دار المعارف - القاهرة ١٩٧١ م .
- ٣٤- عبدالله بن يحيى الباروني ، رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان .

- ٣٥- عدون جهلان ، الفكر السياسي عند الإباضية ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان ١٩٩١ م .
- ٣٦- عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي في خلال القرن السادس الهجري ، ط . دار الشروق - القاهرة ١٩٨٣ م .
- ٣٧- علي يحيى معمر ، الإباضية مذهب إسلامي معتدل ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان .
- ٣٨- عمار طالي ، آراء الخوارج الكلامية ، ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧٨ م .
- ٣٩- عمر سليمان بوعصابة ، معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ، رسالة ماجستير " غير مطبوع " ، المعهد العالي الوطني لأصول الدين بالجزائر .
- ٤٠- عوض خليفات ، نشأة الحركة الإباضية ، ط . دار الشعب - عمان ١٩٧٨ م .
- ٤١- فرحات الجعبري ، البعد الحضاري للعقيدة الإباضية ، ط . مطبعة الألوان الحديثة - سلطنة عمان ١٩٨٩ م .
- ٤٢- محمد ابراهيم الفيومي ، مع البوصيري وابن عطاء الله ، ط . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣ م .
- ٤٣- محمد رشاد عبدالعزيز دهمش ، ضوء جديد على شرح جوهرة التوحيد ، ط . المطابع الأزهرية - القاهرة ١٩٨٨ م .
- ٤٤- د . محمد صالح ناصر ، حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان ١٩٨٩ م .
- ٤٥- محمد عبدالله النقيير ، انتشار الإسلام في العصر الإسلامي ، ط . دار المريح للنشر - الرياض ١٩٨٢ م .

قائمة المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	مدخل : انتشار المذهب الإباضي في شمال أفريقيا
٧	شمال أفريقيا قبيل الفتح الإسلامي
١٠	الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا
١٢	ظهور المذهب الإباضي وانتشاره في شمال أفريقيا
١٩	حملة العلم إلى المغرب
٢١	الدور الديني لحملة العلم
٢٦	الفصل الأول : عصره من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية .
٢٧	المبحث الأول : عصره من الناحية السياسية
٢٨	تمهيد
٢٩	المطلب الأول : جغرافية وارجلان وتأثيرها السياسي
٣٣	المطلب الثاني : مبادئ الإباضية السياسية
٣٨	المطلب الثالث : وارجلان من ٤٥٠ - ٦٢٤ هـ
٤٤	المبحث الثاني : عصره من الناحية الاجتماعية
٤٥	المطلب الأول : التركيبة الطبقية وأثرها الاجتماعي
٥٢	المطلب الثاني : المبادئ الاجتماعية للمذهب الإباضي وأثرها في مجتمع وارجلان
٥٥	المطلب الثالث : حلقة العزابة ودورها الاجتماعي بوارجلان
٦٢	المبحث الثالث : عصره من الناحية العلمية

- ٤٦- محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ط . دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣ م .
- ٤٧- محمد أحمد بكير ، الصراع العقائدي في الفلسفة الإسلامية ، ط . وزارة الشؤون الثقافية - تونس ١٩٧٨ م .
- ٤٨- مسعود فرهودي ، الإباضية في المغرب الأوسط ، ط . جمعية التراث - الجزائر ١٩٩٦ م .
- ٤٩- مشائخ دار القرآن ، غرس الصواب في قلوب الأحياء ، ط . مكتبة الضامري للنشر والتوزيع - سلطنة عمان .
- ٥٠- مصطفى باجو ، أبو يعقوب الوارجلاني وفكره الأصولي ، ط . وزارة التراث - سلطنة عمان ١٩٧٦ م .
- ٥١- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ط . دار صادر - بيروت ١٩٩٦ م .
- ٥٢- يحيى هويدي ، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٧ ، ط . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ م .

٦٣	المطلب الأول : عصر الدويلات وأثره على الناحية العلمية بوارجلان .
٧٠	المطلب الثاني : المدرسة الجدلية الإباضية وأثرها العلمي بوارجلان .
٨٢	المطلب الثالث : الصلات الثقافية بين إباضية المشرق والمغرب وأثره العلمي على وارجلان .
٨٩	المطلب الرابع : مظاهر الحركة العلمية ونتائجها
٩٣	الفصل الثاني : شخصيته
٩٤	المبحث الأول : اسمه ونسبه ومولده ووفاته .
٩٥	تمهيد
٩٦	المطلب الأول : اسمه ونسبه .
٩٧	المطلب الثاني : مولده ووفاته .
١٠١	المبحث الثاني : نشأته ورحلاته .
١٠٢	المطلب الأول : النشأة العزابية لأبي عمار .
١٠٥	المطلب الثاني : رحلته إلى تونس .
١٠٧	المطلب الثالث : رحلته إلى الدار المقدسة .
١٠٩	المبحث الثالث : شيوخه ومعاصروه وتلاميذه .
١١٠	المطلب الأول : شيوخه .
١١٣	المطلب الثاني : معاصروه .
١١٧	المطلب الثالث : تلامذته .
١١٩	المبحث الرابع : علمه .
١٢٠	المطلب الأول : أبو عمار موهبة فطرية .
١٢٢	المطلب الثاني : الدولة الموحدية وفكر أبي عمار .
١٢٦	المطلب الثالث : آراؤه وفتاويه .

١٢٨	المطلب الرابع : مؤلفاته .
١٣٥	المبحث الخامس : أخلاقه وسجاياه .
١٣٦	المطلب الأول : أخلاقه .
١٣٧	المطلب الثاني : كراماته .
١٤٠	خاتمة
١٤٢	فهرس المصادر والمراجع

الطلب الأول : عصر الدولات وأثره على الشاعرة العلمية بوارحلاته .	٧٨
الطلب الثاني : الدراسة العقلية الإيجابية وأثرها العلمي بوارحلاته .	٧٩
الطلب الثالث : أصوات الفاعلة بين الأصوات للشرق والغرب وأثره العلمي بوارحلاته .	٨٠
الطلب الرابع : عصر النهضة العلمية ونجاحها	٨١
الفصل الخامس : شخصيته	٨٢
للبحث الأول : اسمه ونسبه ومولداه ووفاته	٨٣
للبحث الثاني : مولده ووفاته	٨٤
للبحث الثالث : نشأته ورحلاته	٨٥
للطلب الأول : النشأة العلمية لأبي عمار	٨٦
للطلب الثاني : رحلته إلى تونس	٨٧
للطلب الثالث : رحلته إلى الدار المقدسة	٨٨
للبحث الثالث : شيوخه ومعاصروه والتلاميذ	٨٩
للطلب الأول : شيوخه	٩٠
للطلب الثاني : معاصروه	٩١
للطلب الثالث : تلاميذه	٩٢
للبحث الرابع : علمه	٩٣
للطلب الأول : أبو عمار مربي الطريقة	٩٤
للطلب الثاني : الدولة الموحدية وفكر أبي عمار	٩٥
للطلب الثالث : آراؤه وفنونه	٩٦

